زرياب

مقبول العلوي



صدر للمؤلف:

- **فتنة جدة**، رواية، دار رياض الريس، بيروت، لبنان (وصلت إلى القائمة الطويلة للجائزة العالمية للرواية العربية ٢٠١٠).

- **سنوات الحب والخطيئة**، رواية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر عمان – بيروت، ٢٠١١ (وصلت إلى القائمة القصيرة لجائزة الرواية السعودية في دورتها الثانية ٢٠١٢).

- **فتيات العالم السفلي**، مجموعة قصصية، دار فضاءات للنشر والتوزيع عمان، الأردن، ٢٠١٣.

البريد الإلكتروني للمؤلف:
makboul2000@hotmail.com

خطوط العناوين: حمدي طبارة
تصميم الغلاف: سحر مغنية

مقبول العلوي

زرياب



دار الساقي

الطبعة الأولى 2014

ISBN 978-6-14425-764-7

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: 113/5342، بيروت، لبنان
الرمز البريدي: 6114–2033
هاتف: 442 866-1-961+، فاكس: 443 866-1-961+
email: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

تابعونا على
 @DarAlSaqi
 دار الساقي
 Dar Al Saqi

إهداء

إلى غسان...

"الموسيقى تعطيك المجال لتهرب من الحياة من ناحية، وأن تفهم الحياة بشكل أعمق من ناحية أخرى"

إدوارد سعيد

١

اسمي علي بن نافع وكنيتي أبو الحسن.

هذا هو اسمي الذي اختاره لي والدي الذي خرجت من صلبه، واختارته أمي التي حملتني في ظلمة رحمها تسعة أشهر وأرضعتني من ثدييها في مهدي وطفولتي...

ولكن سادتي الجدد – ولا أعلم لماذا – أطلقوا عليّ اسم زرياب. وحينما رفضت وأعلنت احتجاجي لغرابة هذا الاسم وغموض معناه، قالوا لي: اصمت. فليس لك من الأمر شيء، فنحن السّادة وأنت من جُملة العبيد، وسنطلق عليك الاسم الذي نريد. فخرست وسكتّ على مضض...

وعندما سألت عن معناه قالوا لي: هو الطائر الأسود ذو الصوت الجميل، فضحكت من ذلك التناقض الغريب بين شكلي وصوتي.

كان الآخرون يفكرون عوضاً عني، ويصنعون أقداري. حتى اسمي لم أختره، وعبوديتي لم أخترها، ومنفاي لم أختره. رسموا لي خط حياتي فمشيت. قالوا لي: ابقَ فبقيت، وقالوا لي ارحل فرحلت. قالوا لي: غنّ فغنّيت. قالوا لي: اصمت فصمتّ...

وقد قضيت جُلّ سنوات عمري بين أمر ونقيضه، وتقلّبت في بوتقة من الحب المخلوط بالبغضاء، وتراوحت خطواتي بين ذهاب وعودة، بين حِلٍّ وترحال، وبين إقدام وإحجام في متوالية لا نهاية لها. وها أنذا أجترّ ذكريات رفضت الغياب وأصبحت عصيّة على المحو والنسيان.

في بغداد اتسع العالم أمامي. وفُتحت مغاليق أبواب لم أكن أحلم في يوم من الأيام أن أعبرها. قفزت من فوق عتباتها، وولجت بخطواتي نحو عالم كريه وجميل في الوقت نفسه. سهل وصعب في سيل من المتناقضات كان يحيرني ويشتتني في دروب متشابكة كالمتاهة التي لا أعرف أولها من آخرها...

أصبحت بغداد قصيدتي بعد أن كانت منفاي في أول أيامي فيها، ولكنني في حقيقة الأمر كنت أحب بغداد لأنها كانت تذكرني بمدينتي الأم: الموصل...

كانت الموصل مدينة كبيرة وقديمة. تبدو كأنها دوماً على استعداد لمواجهة الفتن والشرور. كانت في حقيقة الأمر أقرب إلى قلعة حصينة منها إلى مدينة؛ ففي أعلاها من جهة الشمال كانت توجد قلعة عظيمة ممتلئة دوماً بالجند العابسي الوجوه والمدججين بالسلاح. ويفصل بين المدينة والقلعة شارع مستقيم وعريض يقع نهر دجلة في الجزء الشرقي منه. يتوسّط المدينة ربض واسع وكبير تكثر فيه الجوامع والخانات والأسواق. في قيسارية التجار كنت ومن بين روائح التوابل في السوق الكبير أتنسّم عبيراً يأتي من النهر القريب. خليط من رائحة الطين وأغصان الشجر المبتلة. أصوات الباعة تشنّف مسامعي. حمى من الفوضى الجميلة. رائحة الأجساد التي تهيم في فضاء مفتوح غير

مغلق. باعة القماش والحرير يساومون النساء بأصوات تشبه الفحيح، وتصدر من أعينهم نظرات زائغة تحمل في طياتها عبير المواعيد التي ستنشأ حتماً في ما بعد. صانعو النعال المنكبّون على الأخفاف والنعال وإبرة من حديد تلمع بين أصابعهم الماهرة والمدربة. بائعو السُرج والركائب والجلد. بائعو النّقل والمشموم. روائح شتى مخلوطة بلغط كبير ولكنه متناغم. جوقة تعزف ألحاناً مختلفة ولكنها تطرب لها الآذان...

في الموصل عشت تسع سنوات من عمري. لا أذكر سوى نتف من طفولتي المبكرة. صارت مثل التماعة تومض كشعلة في ليل بهيم. كل شيء يضيع في سنوات الطفولة، وتحديداً في غمرة التفاصيل الصغيرة المتكاثرة والمتكررة. لا أذكر من طفولتي شيئاً سوى ذلك الفجر الأليم؛ الفجر الذي خطفت فيه من قرية غافية تحت سفح جبال طوروس. فجأة صرت أرى في الطرقات الواسعة رجالاً ضخام الأجساد. أشكالهم في الحديد والزرد تبعث على الخوف والرهبة. كنت أرى الرايات والبنود والسيوف التي تلمع تحت ضوء النهار الوليد، فأشعر برعب حقيقي يجتاحني ويتخم ليلي بالمخاوف.

الرايات السود، وصهيل الخيول. النقع المتصاعد من أسفل سنابكها والمعقود فوق العمائم والهامات. الوجوه المتربة وأسنّة الرماح التي تشرئبّ من خلف الفرسان. الغبار المشنوق في سماء بعيدة ونائية والمتصاعد بسبب الجيش القادم نحو القرية الصغيرة الوادعة. صراخ النسوة. بكاء الصغار. ذهول الرجال. الصيحات المنكرة. الصرخات العالية. القرية الصغيرة الغافية في كنف المساء والتي تعيش قريبة من

النهر وقريباً من الموصل. رأيت بعين الطفل خوذات الجنود الحديدية تبرق تحت ضوء القمر الساطع ونيران المشاعل اللاهبة. لمحت لمعة السيوف التي تحملها السواعد... و... وأمي التي ما زالت متشبثة ببارقة الأمل وتؤمن بتفريج الكرب من رب رحيم. كانت تتضرّع إلى ذلك الجندي الغليظ الفظ القلب وتحضنني. بكت أسفل قدميه لكي يطلق سراحها وسراحي، رغم أنه كان يشدها بقسوة قلب قدّ من صخر من شعرها إلى الأعلى، بينما تخط قدماها على أديم الأرض التي بدا عشبها نابتاً في بدايات الربيع قبل أن تسقط على الأرض فتموت دهساً تحت سنابك الخيل، وتدوسها الأقدام الجوعى للفتك، وتتجاهلها العيون التي خالط بياضها احمرار الغضب، تلك العيون لم تكن بأي حال تنظر إلى الأسفل حيث يكون موطئ القدم والدموع التي يحتضنها الثرى... ثم ضاعت تفاصيل وجهها الباكي ويداها الممدودتان في الفراغ والوحشة قبل أن تلتهمها الضجة ويطويها صخب الموت وعنفوانه.

٢

في القصر كان كل شيء مختلفاً. الاتساع والفخامة. الطنافس بألوانها الزاهية. الزرابي الموزعة في أرجاء المكان. المجامر التي تنثر البخور والعبير. الدهاليز المترعة بالجواري المجلوبات من بلاد الروم وبلاد فارس. رأيت مئات من العيون المليئة بالرغبة، وأحسست بنبضات القلوب الناضحة بالشك. وعشت لحظة بلحظة النهارات المتوالية والليالي المخلوطة بالضحكات الداعرة والفجور المستتر. وشممت رائحة الشرّ العالق بجدران القلوب المريضة وفي الردهات المعتمة. ثورات من حب وشك. معارك صغرى وكبرى تنشب بين السادة والعبيد تشبه المعارك التي تدور بين الذئاب والحملان الوديعة...

وفي وسط هذا وجدت نفسي حيث تكبر الأحلام والأوهام، حيث تتجاور الجماجم مع خوابي الذهب، حيث تحاك الدسائس وتوضع الخطوط العريضة للحروب الكبيرة والصغيرة، حيث تعلو الأصوات وتخفت. هنا يبلغ كل أمرٍ مداه وتختزل الأزمنة في سويعات قليلة أو تطول فتصبح دهوراً متطاولة.

في القصور رأيت الصراع الخفي والمؤلم بين النسوة الحرائر والجواري

المتهتكات أو حتى أولئك الملهمات اللواتي ينزّ من أجسادهن الطيب ومن أفواههن يطيش القول الفاحش وتنثر لواعج الحب الزائف. الحب المرتعب. الحب الذي يعيش وسط الشروط القاسية والعقول الموبوءة بالبهتان، ويسعى بدأب وصبر نحو الاحتكار والأنانية المحضة.

هنا رأيت حروباً ضارية حقيقية ومفتعلة قد تصغر وقد تكبر؛ حروب تجري في كل حين للاستئثار بقلب رجل واحد هو قلب سيّد القصر!!

فهمت واستوعبت جيدًا المغزى من تلك النظرات المتفحّصة والمستفهمة التي تسبر الأغوار وتصل إلى الأعماق البعيدة. سمعت الأنفاس اللاهثة ورأيت الأقدام التي تصل إلى العتبات الأخيرة للمخادع حيث ينوس الضوء وتتلاحق الآهات وتخفق الأفئدة وتذبل الكلمات وتتراقص الأجساد.

بحكم العلاقة الوطيدة بين إسحاق الموصلي ومولاي الخليفة المهدي، فقد وهبني سيدي القديم لسيدي الجديد إسحاق...

هل قلت وهبني؟

نعم. فقد سمعته بأذنيّ يقول له والبشر طافح على محيّاه:

– خذه... لقد وهبته لك.

فشعرتُ بشيء ما يتمزّق في داخلي.

قد تكون الهبة في الهدايا الثمينة، وقد تكون في منح القلوب الطافحة بالمحبة التي تعطي للأشياء شكلاً وللكلمات معنى، وقد تكون مجرد هدية زهيدة أو غالية الثمن أو رغبة في الاكتناز أو حباً في الإمتلاك.

وأنا هل كان قلبي مترعاً بالحب لكل من "امتلكني" يوماً ما؟

وهل يملك السبي والرقيق ومن هم على شاكلتي قلباً لكي يحب أو يكره؟

إنها أمور تختلف من شخص إلى آخر، لكنها في حالتي التي أعتبرها استثناءً أستطيع القول: أن نعم. فقد أحببت سيدي المهدي لأنه كان إنساناً قبل أن يكون سيّداً وخليفة للمسلمين. فالملوك والأمراء قلّما تجد منهم من يتّصف بصفات البشر العادية عندما تتكالب عليهم الدنيا بحلوها ومرّها، وتقبل عليهم بقضّها وقضيضها، وتجعلهم يخوضون في متاهات الغطرسة والتسلّط. إنها في واقع الأمر تمسخهم وتجرّدهم من إنسانيتهم من دون أن يشعروا بذلك إلا بعد فوات الأوان. لكنّ سيدي المهدي ربما كان استثناءً؛ فقد أحببته لأنه طرق باب قلبي بخفّة، وأزاح شوائب العبودية من نفسي وطمس معالم الفوقية التي من الممكن أن تطال العبد من السيّد، وفوق كل هذا كان رقيقاً ذا قلب مفعم بالحب. ولا أنسى مقدار شغفه وحبه لتلك الجارية المجلوبة من نواحي الري...

كان اسمها نرجس...

كانت فارسية الأصل ترعرعت زمناً لا بأس به في قصور الري.

لقد رأيت كل شيء بأم عيني.

الحب وحده جعل من ذاك الخليفة متمسّكاً بثوب إنسانيته. لم يدعه ينجرف إلى الدماء والدسائس والأحقاد وكل هذه الصفات الموغلة في الوحشّية...

كان يلوذ بمخدعها آخر النهار ليجد في كنفها الراحة، ويمسح

صخب الأحاديث المكرورة والكلام الممجوج المترع بالعداوة والبغضاء ويبتعد عن أصوات الجنود الصاخبة وينأى بنفسه من أحاديث الوشاة الفج الذي لازمه طيلة النهار. بين يديها يكون طفلاً يلهو بلعبة. يتحرّك في مجال من الأنس المخلوط بعبير اللهفة...

ولكنه لم يكتفِ بذلك.

كنت ألمح سيدي المهدي وهو غاد ورائح في جنبات قصره الكبير والواسع مداعباً هذه وممسكاً بشَعر تلك، خابطاً بيديه على المؤخرات السمينة الرجراجة، وقارصاً الخدود الملساء، ولاثماً في الزوايا والأركان المنزوية الأفواه الصغيرة المشرّبة بحمرة الصبا. كان ينظر إلى الوجوه المفعمة بالنعومة، ويعرف كيف يعصر الخدود النقيّة الصافية ويلعق الشهد والرضاب من الأفواه المنعشة. كان يعرف كيف يعبّ من كأس الحياة ويحلب المتعة حلباً لا هوادة فيه. خطواته المتلاحقة والسريعة تجعله يبدو كمتعجل أمراً ما أو كمستشرف شيئاً ما.

ورغم صغر سنّي، كنت أدرك جيداً أن خلف تلك الحجرات الموصدة يوجد الدم والعطر، الهمس والضجيج، الخوف والرجاء. حينذاك لم أكن أعرف ربما لصغر سني – أن دهاليز القصور كانت تكبر وتتسع لعشاق الحياة ومنتهزي الفرص وتضيق أمام دروب الورع والخشوع والزهد في الدنيا وزهرتها الفانية.

هنا يمتزج الأسود والأبيض من دون أن يكون ناتج هذا الامتزاج بالضرورة رمادي اللون، فرائحة الطين والأجساد تتداخل ثم تداعب الأنوف فتقبلها أو ترفضها القلوب في آخر المطاف. حتى الوجوه العابسة والمستبشرة تتغيّر بعد تبدّل الحال والمآل.

لم يبقَ أي شيء تحمله ذاكرتي عن سنوات الطفولة سوى نتف من أيام أصابها الصدأ. كانت كأطياف تسرح وتمرح في مرج قشيب وتتصاعد حتى تصل إلى ذروة الحلم.

في قصر الخليفة المهدي لم أمكث سوى سنوات قليلة مرت كبرهة من الزمن.

كان الغموض الذي يلفني في تلك السنوات يصنع في ذهني كلمات واهية تذوب في الفراغ. كنت أرى عيوناً وقحة تتلصّص على كل شيء، وقلوباً تصطدم دوماً بجدار صلد يحجب الرؤية ويصبح شاهداً على الانكسار والوجع.

لم تستمر خلافة مولاي المهدي بن جعفر المنصور سوى عشرة أعوام وشهر. مات على مشارف مدينة "ماسبذان". كان في طريقه في حملة تأديبية لابنه الأكبر "الهادي" الذي لم ينصع لأوامره التي تقضي بتعيين أخيه هارون خليفة بدلاً منه. كانت نهاية هذا الخليفة من ذلك النوع من النهايات التي تثير الضحك والبكاء على السواء. مات هذا الخليفة بسبب ثمرة كمثرى مسمومة أرسلتها جارية من جواريه إلى جارية منافسة لها، وفي أثناء سير ذاك العبد الخصي بين مخادع النساء بطبق فيه ثلاث إجاصات، إحداهن كانت مسمومة، التقى بالخليفة الذي كان في جولة يومية على جواريه المفضّلات. لمحه واستوقفه وتناول إجاصة يخالط صفارها حمرتها، وشاءت الأقدار أن تكون تلك الثمرة من أكثر الإجاصات نضوجاً وإغراءً. ولسوء الحظ مرة أخرى، كانت الإجاصة المسمومة، فأكلها ومات بعدها بأربعة أيام، بعد معاناة وألم شديدين. وقد وصف الشاعر أبو العتاهية هذه

الواقعة بأبيات معبّرة من الشعر سارت بها الركبان، حيث قال هذا الشاعر المجيد:

لست بالباقي لو عمّرت ما عمّر نوح
فعلى نفسك نحْ إن كنت لا بد أن تنوح

كان قبل أن يموت بوقت كافٍ قد أوكل الأمر إلى ولده هارون بعد أن نزع ولاية العهد من ولده الهادي الذي كانت مشاغباته معه تنذر بشر مستطير.

ولماذا أذكر كل هذه الأحداث؟

إنها لا تهمني بأي حالٍ من الأحوال...

ولكن الذي كان يهمني تلك الكلمات التي قالها لي سيدي المهدي:

– لن أدعك تعيش في زيف القصور وتوغل في أوساخها وقسوتها. سأعهد بك الى رجل يعشق الحياة فلا تشعر بالغبن، ولن يعتريك الحزن في أيامك القادمة.

– خذه... فقد وهبته لك.

ووهبني لإسحاق الموصلي.

ثم رحلت إلى بغداد برفقة سيدي الجديد.

ولكم كان سيدي المهدي صادقاً، ولكن لوقت قليل قبل أن يكشف الزمان لي عن وجهه القبيح والمؤلم.

٣

في بغداد، مدينتي الجديدة، لم أعِ نفسي إلاّ وأنا في قصر جديد مثل قصر الخليفة السابق.

وبعد أن انتقلت إلى قصر سيدي إسحاق الموصلي، مرّت بقيّة سنوات الطفولة والصبا على حال من عيش متقلّب بين الترح والفرح، الشّدة واللين، كما هي حال الدنيا منذ أن وجُد البشر عليها ودرجوا على أديمها.

كنت قد تجاوزت كل شيء كان يؤلمني ويحزّ في نفسي. كل تلك الكلمات والإيحاءات المؤلمة تلاشت تدريجاً بعد أن تكيّفت مع كل الآراء، وتصالحت مع كل تلك الوجوه وتلك الأقاويل التي كانت تصمني بالعبودية والرق. ولحسن حظي فقد كان سيدي الجديد يشبه سيدي القديم في كثير من الصفات. كان هيّناً سهلاً محبّاً للحياة. وأدركت حينها مدى حبّ سيدي القديم الخليفة المهدي لي. فقد كان سيدي الجديد عاشقاً للدعة، متبتّلاً في محراب الحياة. يعيش يومه وكفى.

كثيراً ما كُنت أراه يرنو إلى النهر؛ نهر دجلة. يطيل النظر إلى صفحة

الماء حتى لكأنما تغوص نظراته حتى تبلغ جذور دغل أشجار النخل الكثيف التي تتهادى ذوائبها يمنة ويسرة. يتصاعد ببصره نحو الأفق بتؤدة يرقب عبور القوارب من الضفة إلى الضفة الأخرى من النهر. يتفرّس في الوجوه وكأنه يخاطب طيفاً غير مرئي. ينبش في الأحداق باحثاً عن شيء هارب...

في المساءات الأولى التي أعقبت سكناي في مدينتي الجديدة بغداد، كنت أستلقي على فراشي. أسلخ عني تعب النهار. أحملق في فضاءات الحجرة وأسترجع ذكريات غائبة وبعيدة يعلوها ضباب كثيف.

أهرب من كل ذلك إلى النهر، إلى دجلة الذي ينوس لي من بين ذوائب أشجار النخيل. مرآة ساطعة لامعة تخلب اللب. القوارب الغادية والرائحة من ضفة إلى أخرى تشعرني بجريان الحياة واستمرارها رغم كل شيء.

كل شيء كان مختلفاً هنا بعد غياب النمط الملكي الذي يغلّف الأشياء والأشخاص والوجوه في القصور ويعطيها أبعاداً ومعاني ليست حقيقية على الإطلاق.

كنت ألمح سيدي إسحاق الموصلي يسير هنا وهناك. كان ملكاً في بيته الكبير. أسمع حفيف ثيابه ووقع حذائه على الأرض، وأرى يديه المعقودتين خلف ظهره والتي تنفك عقدتهما عندما يمر بي فيمسح على شعري بحنوّ بالغ فيختفي جسده ويبقى طيفه وعطره وحضوره يسبح في المكان وفي عقلي وقتاً لابأس به...

في المساء كان اللغط يخفت. فسيّد القصر قد عاد من الديوان؛ ديوان الخليفة هارون الرشيد. كانت القناديل تضاء في الجنبات والأركان

والمخادع. الحرس في قمّة التيقّظ. الجواري يلبسن أجمل الثياب وقد دلقن على أجسادهن الزيوت المعطرة وارتسمت الابتسامات على الوجوه...

كنت أكتفي بالمراقبة وألتذّ بمشاهدة كل هذا الاستنفار الكبير.

كان لسيدي إسحاق الكثير من الأصدقاء، ومع قدوم الليل كان كل شيء يضجّ بالفرح. جاء الندماء والشعراء والأخلّاء. غنّت الجواري فارتفعت الآهات وصيحات الطرب.

أوقات كثيرة وجدت فيها معلمي وأبي الروحي إسحاق الموصلي يحرك ريشته على أوتار عوده. تكتسي ملامح وجهه بأنماط مختلفة من التعبير، فتارة يبدو حزيناً وتارة فرحاً وكثيراً ما يغرس بصره في الأرض أسفل قدميه ثم يدخل في حالة غياب، بينما أصابعه تعبث بعوده...

نعم إنه الطرب...

الطرب يفعل كل هذا.

تخفق القلوب بالفرح وتكتسي الحياة ببهجة اللحظة. يتوتر العصب وتذوب الكلمات قبل أن تخرج من الصدر. من تلك اللحظة تعلمت من سيدي إسحاق كيف أعبّ من الحياة وزهرتها، وكيف ألمح جمال الندى الذي يغسل أنفاس الصباح على الزهر.

تعلّمت العزف على عوده. وقد كان سعيداً ومسروراً مني، ويمنحني وقتاً ثميناً من وقته لتدريبي على العزف والغناء. كان مبهوراً بي. فقد كنت سريع التعلّم ولي رغبة حقيقية في إتقان هذه الصنعة التي رأيتها تخفّف الكثير من آلامي، وتساعدني لكي أستمر في العيش، وأن أتصالح مع ذاتي الكسيرة والمتعبة.

كنت أقلّده وأحاكيه في كل طرق تعامله مع عوده. فقد كنت أمرر بالريشة على الأوتار وأشعر بنياط قلبي تتجاوب مع تلك الألحان والأصوات الشجيّة الموحية. كثيراً ما كنت أنفرد بنفسي. أجلس أسفل سور أو تحت شجرة نخيل وأداعب أوتار عودي. ومع مرور الوقت، استحال العزف شيئاً... شيئاً يشبه البكاء. يشبه الفرح. يشبه النشوة التي تداعب أخمص القدم وتدغدغ القلب.

كنت أسمع الأنغام تنوح في هدأة الليل، وفي وسط صفير الريح، وتداعب النسمات التي تهب بين أغصان الشجر. كنت أضرب الأوتار بحزن الأصابع ووجع القلوب وأنشئ عالماً بهيّاً تستطيب فيه لذة العيش.

كنت في الحقيقة أخلق عالمي الخاص بي؛ ذلك العالم الذي سوف يرافقني طيلة سنوات عمري اللاحقة.

٤

في المساء كما هو العهد منذ زمن طويل وككل المساءات القادمة والماضية، كان كل شيء يخلد إلى السكينة في متواليات من الصمت. خرير دجلة يداعب الأعشاب المترقبة للارتواء. أصوات الريح تلتقطها الآذان بمرح. على امتداد الضفتين كانت ذوائب النخل تهمس لليل وللماء وللعشاق المندسين أسفل الشجر الكثيف. في نقطة تماس النهر من الأرض كانت توجد قوارب خشبية تتأرجح بسبب ريح رطبة تمسّها مسّاً رقيقاً...

وفي مساء مشابه لهذه الأمسيات قال لي سيدي إسحاق الموصلي: أنت زرياب...

زرياب؟ ماذا يعني هذا؟

لا... لا أريد هذا الاسم. أريد فقط أن أُدعى باسمي القديم.

لم أستطع أن أقول تلك الكلمات في وجه سيدي، فقد كتمتها بين جوانحي وسكتّ على مضض...

وجدت أنني لا أملك حق الرفض، فالتزمت الصمت.

لكن في سويعات الهناءات وخلوات الأنس، كثيراً ما كنت أحدّث

نفسي قائلاً لها: "مهما أُطلق عليّ من أسماء فإنني سأظّل أحمل اسمي القديم: علي بن نافع، وسأحتفظ بكنيتي التي أعتزّ بها: أبو الحسن".

لكنني مع مرور الأيام وتكرار مناداتي بهذا الاسم من سيدي ومن في القصر من عبيد وجوارٍ وإماء، كنت أهجس لنفسي باسمي الجديد والغريب قائلاً لها: أنا زرياب، وزرياب يعني الطائر الأسود الجميل...

صحيح أن صوتي جميل - كما قال لي سيدي إسحاق - ولكنّ وجهي أسود اللون، ولعمري لم يكن ذاك ليشكّل لديّ فرقاً أو يصبح همّاً أحمله على كاهلي، خصوصاً بعدما ألفتُ الحياة وطعمت من حلوها ومرّها على السواء.

زرياب... زرياب... فليكن.

يحدث كثيراً أن يسامرني معلمي الأكبر إسحاق الموصلي. جمعتنا ليال كثيرة. كنا نجلس على ضفة دجلة حيث تكثر أشجار الحلفاء والنخل بطول حافة النهر. نجلس حيث نجلس يدور بيننا حديث الأخلّاء والأصدقاء ثم نغوص في ذيّاك الحديث المحبّب لكلينا: الطرب.

شعرت بكثير من الارتياح بعد أن تجاوزت بعض المصاعب وأخضعتها لمشيئتي رغماً عنها وعني في الوقت نفسه.

ماذا أخفي في صدري؟

الحنين أم الشوق أم وجه والدتي الحنون التي انتُزعت من بين يديها انتزاعاً فظّاً ومؤلماً؟ أو هو كل هذه الأشياء مجتمعة؟

سيدي إسحاق الموصلي كان رجلاً لّماحاً ذكياً. دائماً يلمح شرودي. يسألني وابتسامة عذبة ترتسم على وجهه:

- ماذا بك؟
- لا شيء...
- لم تعد كسابق عهدك. هل فقدت الاهتمام بالتدريب ومناغاة عودك؟
- لا شيء من ذاك يا سيدي...

وحينما يلاحظ عدم رغبتي في الكلام يربت كتفي ثم ينصرف.

كانت كلمات مبتورة لا تساعد على الاستمرار للخوض في الحديث. حينما أداعب أوتار عودي فيعلو ذاك النحيب منها، أطوّع قصائد لشعراء مشهورين ومغمورين وأجعلها تخضع لسطوة الألحان. أسمع همهمات تتصاعد من هنا وهناك. تمر من أمامي أسراب من جوار مغنيات حسناوات الوجوه ومتغنّجات. يضطرب قلبي لمرأى أردافهن الراعشة والسمينة. شيء ما يشبه الخدر يتصاعد من أخمص قدمي حتى يصل الى حنجرتي.

ما بين تلك التجاذبات العنيفة والمتكررة كنت أعيش في حالة وسطى بين الشك واليقين، الجدوى والتفاهة، حتى ألقت الأقدار بـ"صفية" في طريقي.

صفية جارية تركمانية حسناء، ذات عينين بنيّتين مثل قشر الجوز. خدودها ملساء وخصائل شعرها تحمل ألواناً شتى، شقراء وسوداء وحمراء. نشأ بيننا تواطؤ ربما أتى كردّ فعل على سطور الشقاء التي كنا نخطّها على أديم جلد مشقق بدموعنا وآلامنا سطراً سطراً. صفية تلك الجارية التركمانية نسيها القصر وربما نسيها سيدي إسحاق الموصلي لتسقط بين ذراعي مثل تمرة أنضجها اللهب وحرارة القيظ في الصيف.

منذ رأيتها شعرت برابط ما يربطني بها. كانت وجهاً ضائعاً بحثت عنه كثيراً فوجدته أخيراً...

ومع توالي الأيام غزت قلبي برفق. بيننا أشياء مشتركة يصعب إخضاعها للتفسير أو الشرح. تركت كل شيء للأيام كي تنضج هذه العلاقة على مهل ومن دون إحراق للمراحل، وقد نجحنا معاً. نجحنا بصمتنا وتواطئنا، وهذا هو المهم.

كنت أحبها حباً مختلطاً لا أستطيع تصنيفه. ربما كان مجرد حب عبد لجارية. أرضية مشتركة في ما بيننا جعلتنا نتغاضى عن ماض مؤلم لنسقط تحت وطأة حاضر بليد!

في كثير من المساءات كانت تتسلّل إلى مخدعي حاملة بين يديها سلّة من فواكه. تأتي وتجلس عند رجلي صامتة. لا أكلمها ولا أبادرها بالحديث حتى تتكلم هي أولاً. وعندما يصعب الكلام كانت تداعب أصابعي. تشدّها وتلويها حتى أصاب بخدر لذيذ. تتناول من السلة تفاحة تقضمها وتناولني إياها، فأشعر بلذعة الخطيئة تكوي قلبي!

تفاحة حواء المهداة إلى آدم. القصة نفسها تتكرر. وعندما أقلّب الأمر على شتى وجوهه، أشعر بالذعر. أشعر أن أيام الدعة والكسل والخمول قد بدأت بالتراجع. تبتعد وتبتعد حتى يبتلعها السراب. أتناول التفاحة من يدها البضّة ناظراً إلى ملامح وجهها الدقيقة وقسماتها الحلوة. تناولني وبسمة صافية نقيّة تلوح على وجهها البشوش. ألمس أصابع يدها اليمنى فتئز رعود قاصفة في دواخلي. أشعر برجفة وهواء ساخن يغالب الخروج من صدري. أقضم التفاحة وأنظر مكان قضمتي فأرى دماً ينزّ منها ويلوّث يدي. أرمي التفاحة

من يدي بخوف. كنت أرتجف وهي تمسك بيدي فأشعر بطغيان من حنان وافر. مشاعر غير قابلة للتأويل والتفسير. تقبّل يدي فأغمض عيني طائفاً في ملكوت بهيّ وساحر لم أعهده من قبل...

كانت تلفّني بدفئها الغامر. ربما كانت تشعر بخيبة أمل؛ فهي لا تريد أن تبدو كامرأة تعرض بضاعتها في سوق كاسد. عندما تغادرني مهمومة أو حزينة أو يخامرها ذاك الشعور بالأسى، كنت أشعر بالمهانة تتناوشني كذئاب تقطع بأسنانها الحادة جيفة ملقاة في مكان مهجور. لا شيء لدي لكي أقدمه لها. ماذا يقدم عبد لعبدة مثله؟ أيقدم لها وعوداً زائفة، أم يفتح أمامها أبواب أحلام بنت عليها العناكب خيوطاً واهية ودبقة. كانت صفية جارية صغيرة في السن. مثلي تماماً، سنّاً وأقداراً. لا نملك سوى الأوهام التي بنت جبالاً من صخر صلد داخل نفوسنا وحياتنا، وأيضاً سيكون كذلك هو موتنا بيد سيد القصر إذا سمع أو وشى بنا واشٍ أو رأى صدفة علاقة ما مشبوبة تتم وراء ظهره، ففي غمضة عين يستطيع أن يحكم بالشتات أو البقاء أو الموت أيضاً.

حاولت أن أسير بجانبها على الدرب نفسه، ولكن من دون أن تتلامس أصابعنا أو تتواطأ نظراتنا كثيراً أو بشكل زائد عن الحاجة. لا أريد أن أحطّم أشياء قد نشعر بالندم عليها في ما بعد.

هل أحببت صفية يوماً ما؟

كنت أجيب نفسي: نعم. إنني أحبها ولكني في الوقت نفسه أحرص على ألا نكتوي بتبعات هذا الحب الوليد. سيحين الوقت المناسب كي أجهر به وأجعله واقعاً مفروضاً على رؤوس الأشهاد.

٥

والنهار يبدأ بلملمة مصابيحه وأنواره. وفي لحظات الغسق جاء رجل حاملاً على كتفه كيساً من خيش حائل اللون. طرق الباب بضربات واضحة وقوية إلى درجة الاستفزاز. وعندما فتحت الباب ولمحته بهيئته البائسة تلك، شعرت بالنفور منه ومن نظراته المتلصّصة التي كانت تعبر كتفي لتصل إلى باحات الدار وحجراتها. كرهت تلصّصه ذاك فسألته بحدة:

– ماذا تريد؟

– أين سيّد القصر؟

– وماذا تريد من سيّد القصر؟

كانت لهجتي نحوه لا تحمل الودّ. ربما كان سبب ذلك من بقايا المخاوف التي بدأت تغزوني في الأسابيع الماضية. لم أشعر بنفسي إلا وأنا أقول له:

– لا سيّد للقصر هنا.

لم أشعر حينها بأن سيدي إسحاق الموصلي كان يقف خلفي تماماً في تلك اللحظة. شعرت بخجل كبير يجتاحني. لم يكن هناك أي مبرر للتفوّه بهذه الكلمات وبكل هذه الفظاظة نحو رجل لا أعرفه

ولم تسبق لي رؤيته. لكنّ ابتسامة لاحت على وجه سيدي خففت كثيراً من اضطراب نفسي فلذت بالصمت زارعاً بصري أسفل قدمي.

قال سيدي إسحاق للرجل الواقف أمام الباب:

– هل أحضرت الأمعاء معك؟

– نعم يا سيدي؟

– هل هي أمعاء شبل نمر أم قط؟

– بل أمعاء شبل نمر يا سيدي كما طلبت.

– نعم... نعم. كما هو متفق إذن.

أخرج سيدي كيساً صغيراً من النقود ألقاه نحو الرجل الواقف أمام الباب، فسمعت رنين الدنانير يصرّ عالياً، فتلقفه ذلك الرجل قبل أن يختفي ذاك الكيس في أحد جيوبه، ثم انصرف شاكراً والبشر يعلو وجهه.

عرفت في ما بعد قصة الأمعاء هذه.

ما زالت أمعاء القطط تئن تحت ريشته عندما يضرب على عوده، حتى قرّر أخيراً أن يستبدلها بأمعاء شبل نمر صغير.

وبعد أن عرفت، سألت نفسي: أي إلهام نزل على سيدي إسحاق لكي يستبدل أوتار عوده من أمعاء القطط إلى أمعاء شبل النمر؟

وتذكرت أنه في بداية تعلّمنا على العزف والإحاطة بأسرار العود، كان سيدي إسحاق الموصلي يعيد مراراً على مسامعي ومسامع تلاميذه وجواريه أن أمعاء النمر، وخصوصاً عندما يكون شبلاً صغيراً، هي أفضل أوتار للعود. يقول إن لها ليونة عجيبة وصبراً على الشدّ والجذب، ولها نغمة خاصة لا يدرك سرّها إلا أصحاب الصنعة المهرة في عالم العزف والغناء.

كنت أسير في الردهة الطويلة شبه المعتمة بسبب حلول الظلام. كنت ذاهباً إلى حيث تلك الغابة الصغيرة من شجر النخل المتشابك الأغصان في الجزء الغربي من القصر. كنت أسمع وشوشة النهر تأتيني مثل عشق مشبوب. لمحتني صفية فجاءت لتمدّ لي يد العون. شيء ما انكسر في داخلي عندما رأيتها. كنت أسترق النظر نحوها رغماً عني.

توقفت فجأة عند تلك النخلات، ثم قالت بصوت بدا محايداً:

– هنا. هذا هو المكان المناسب والمعتاد.

لمحتها تحفر بسكين صغير حفرة لكي تضع فيها ذلك الإناء الذي بداخله أمعاء شبل النمر بعد أن تغمسها في زيت الزيتون. لم أستطع الصمود أكثر. تتلاعب بي منذ أيام مشاعر شتى لم أفهمها. اقتربت منها متجاهلاً كل شيء. الرائحة العفنة. نصل السكين الذي يلمع بين أصابعها المضمومة بقوة على المقبض. عيناها اللوزيتان. يدها البضة. تجاهلتني. استمرّت في الحفر وكأنني لست موجوداً. لم أعهد منها كل هذه الانفعالات وهذا الغضب الصبياني والأفعال الصغيرة من قبل. كانت تتخاطب معي بالصمت أكثر من الكلام.

– ماذا دهاك...؟

– ....

ربما كانت هذه هي المرة الوحيدة التي لم تجبني فيها صفية منذ أن جاءت إلى قصر سيدي إسحاق الموصلي. مرّ على وجودها نحو تسعة أشهر. أنقذها عرج خفيف في قدمها اليسرى من ظلمة المخادع السرية والغزوات الليلية التي يقوم بها عبيد القصر في الهزيع الأخير من الليل لجناح الإماء والجواري، وأنقذها كذلك من بعض الضيوف الذين

يكونون مخمورين في أواخر الليل في مناسبة من المناسبات الكثيرة التي يقيمها سيدي لضيوفه الكثر.

هل أعترف وأقول لها: إنه عندما وقع بصري عليها لأول مرة شعرت برباط يربطني بها حاولت تفسيره فلم أقدر. أحجمت عن البدء باعترافي. وفجأة شعرت بحنان بالغ نحوها. اهتزت أعماقي بعنف عندما رأيت في ضوء الشفق الباهت عينيها اللوزيتين تنظران نحوي. كنت أشعر بالخوف عليها عندما عرفت أنها فتاة لم تظهر عليها علامات البلوغ إلا منذ عام أو أقل، وتحوّل خوفي ذاك الى شفقة أو عطف عندما رأيتها أول يوم لها في القصر تمشي وشقها الأيسر يميل مع كل خطوة تخطوها. كانت تعرج -كما أخبرتني في ليلة ما جمعتنا معاً- بسبب سقوطها من فوق بغلة في ليلة شاتية عندما أغار النخّاسون وبائعو العبيد على قريتها الهاجعة في سكون قرب جبل سنجار. ساعد في تفاقم كسرها وعرجها التجبير الخاطئ لقدمها الصغيرة من مجبّر يبدو أنه لم يكن حاذقاً في عمله. أكثر ما كان يربطني بها مدى تشابه حياتينا السابقتين. تلك الحيوات المنزوعة من تحت كنف الأمهات ودفء البيوت وعناية الآباء في سن مبكرة. في ما عدا ذلك لم تكن في نظري سوى رفيقة في شقاء يستتر تحت ظل السادة الأقوياء الذين جلبونا لنكون في خدمتهم.

- ماذا دهاك؟

- لا شيء...

لم يفتنِ الدمع الذي كان يملأ عينيها، ولكنني تجاهلت ذلك. كلما حدثتها ازداد نحيبها. لم أرد أن أكون سبباً للمتاعب لي ولها. انصرفت بعدما سمعت نداء سيدي لي يأتي من مكان ما من الدار.

٦

تذكرت تلك الأمعاء؛ أمعاء شبل النمر.

لا بد أن تمكث تلك الأمعاء النتنة خمسة أيام حتى تذهب الرائحة، ثم تنقع في زيت زيتون آخر جديد لخمسة أيام أخرى حتى تكتسب قواماً بين الصلابة والليونة. وبكثير من المهارة والحذق تُشدّ على عود لتصبح أوتاراً تصدر منها الأنغام والألحان. يا لها من مساحة مشتركة ما بين القسوة واللين!

تعزف ألحاناً متناغمة تصدر من جرّاء الضرب على أمعاء منزوعة من نمر صغير مسكين!

أيّ تناقض هذا؟

يخيّل إلي من خلال التفكّر في هذه التجربة أن ساعات الصفاء والهناء لا تأتي إلا بعد لأي ومشقة وعذابات متصلة ثم... لا شيء. كل يسير في فلك مرسوم له. تتغيّر الأحوال. تحمل عناقيد النخل بسراً ونجنيه تمراً، ويزحف الزمن ببطء سلحفاة، ويعود كل شيء إلى مكانه.

في صباح اليوم السادس كان أول ما سأل عنه سيدي تلك الأمعاء. أسرعت بإحضارها من مكمنها، وعندما أمسك بيديه ذلك الإناء اشتمّ

رائحتها النتنة التي لم تزل بعد، فغامت عيناه. أشاح بوجهه ثم قال بحسم:

- لا أريدها.
- وماذا سنفعل بها يا سيدي؟
- احتفظ بها إذا أردت.

كان جوابه عن سؤالي مبهماً. ماذا يقصد بقوله أحتفظ بها لنفسي؟ كان رداً غير متوقّع على الإطلاق.

- اصنع بها أوتار عودك. ألم تخبرني مسبقاً بأنك تنوي أن تصنع لنفسك عوداً يخصّك؟ ها هي الفرصة قد جاءتك. اغتنم هذه الأمعاء الثمينة وشدّ بها أوتار عودك ولنرَ النتيجة.

أخرجني من جمودي، وانتبهت له وهو يقول لي:

- خذها وافعل بها كما كنت تفعل سابقاً بأمعاء القطط.

غادر سيدي المكان وهو يضع سبابته وإبهامه على أنفه بسبب تلك الرائحة التي بدأت تتسلّل من ذلك الكيس الحائل اللون.

في تلك اللحظة كان مشروعي الصغير المؤجّل دوماً قد بدأ يكبر ويكتسب شرعيته ووجوده. عود يخصني أنا في الدرجة الأولى.

ماذا سأصنع له؟

سأقدم له كل ما تصبو إليه نفسي. سأسكب من خلال العزف على أوتاره عبرات السنين والخيبات. سأودعه الحب والعطف. سأجعل منه سفيري إلى أحلامي المعشّشة في رأسي. سأهدهده وأسبغ عليه حناناً ووداً واحتراماً. سأجعل منه الوسادة التي تمسح دموعي وتمتص آلامي...

وبدأت أحثّ الخطى لتنفيذ ما أزمعت عليه.

طوال ستة أشهر كنت أمضي في جولات طويلة في سوق النجارين، أتلّمس الأخشاب وأسأل عن خصائصها وميزاتها. استفسرت من النجارين عن أجودها وراقبت أصابع كفوفهم تمرر على الألواح وتتحسّسها لتنجز في الأخير شيئاً جميلاً. كانت رائحة الخشب تدوخني وأقاوم كثيراً رغبة شمّ بقاياها ذات الرائحة النفّاذة. كانوا يبذلون جهداً عظيماً، ولكنه جهد المحبّ المدلّه بالحب ولا شيء سواه.

في عطفة مظلمة من السوق الكبير، وجدت ضالتي. عجوز في العقد السابع من عمره. محدودب الظهر. غائر العينين. كثيف شعر الحاجبين. أدرد الفم. معروق اليدين. ما إن رآني ماشياً في السوق وقادماً نحوه حتى نهض على قدميه مرحّباً بي. وبلطف سألني عن حاجتي. أخبرته بما أريد. قال لي ضارباً بيده اليمنى على صدره:

- إن حاجتك وما ترغب فيه لدي. إنني من أقدم النجارين في السوق والكلّ يشهد بذلك لي. سأضع كل خبرات السنين في صنع عودك، فقط أمهلني شهرين وسأكون سعيداً بتشريفك وتسليمك ما ترغب فيه.

- والأوتار؟

قلت تلك الكلمة وكأنني تذكرت شيئاً مهماً. لقد تذكرت تلك الأمعاء المدفونة في بيت سيدي إسحاق الموصلي. حينها كان النجار العجوز يتطلّع إليّ مستفهماً فعاجلته بالقول:

- الأوتار. متى أحضرها لك يا سيدي.

- هل لديك أوتار؟

– نعم. أمعاء شبل نمر.

ما إن تفوّهت بتلك الكلمات حتى برقت عيناه بسرور وجذل.

شدّ على يدي ثم قال بفرح:

– لقد أحسنت الاختيار لأوتار عودك. ريثما أنتهي من بناء جسد العود، أحضرها وسأربطها في أربعة مسارات.

– بل خمسة.

كان النجّار العجوز يتطلّع إليّ باستغراب ودهشة. ثم ابتسم وقال لي:

– المألوف يا بنيّ أن للعود أربعة أوتار...

– ولكني أريدها خمسة. أيمكنك فعل ذلك يا سيدي.

استغرق في تفكير قصير بعدما ضيّق ما بين عينيه ثم قال لي بمرح:

– ليكن. سأصنع لك عوداً كما طلبت بخمسة أوتار وليس أربعة.

شكرته. استأذنت منه ثم قفلت راجعاً، ولا أدري هل سيتمكّن هذا الرجل من تحقيق رغبتي أو لا.

في المساء دهمتني مشاعر شتى. مزيج من فرح وانقباض في القلب. كنت مشغول البال و لم ألتفت حتى إلى مداعبات صفية وإيماءاتها المغرية لي. كانت بحركاتها تلك تريد أن تخبرني بأنها قد سامحتني وأن لديها القابلية للأخذ والرد، ولكنني كنت في شغلٍ شاغل عنها...

أن أمتلك عوداً يخصّني. أبثّه شكواي وأداعب أوتاره بأصابعي ويصبح نديمي في لحظات الوحدة والخوف والفرح والحزن.

كان حلماً ولكنه مع ذلك قد يكون واقعاً ملموساً قد يتحقق في خلال شهرين، وهذا ما أسعدني.

٧

ذلك العود المنتظر كان سبباً كبيراً في تعاستي!

كل شيء كان يسير هيّناً وفي طريق سهل حتى جاء ذلك اليوم المشهود.

كان لسيدي إسحاق عادة محمودة يفعلها كل عام، وخصوصاً في المواسم الدينية كشهر رمضان أو العيدين، وكانت هذه العادة هي أن يكون له عتقاء يخلّصهم من قيد العبودية. يفعل ذلك لوجه الله تعالى. وقد خصّني سيدي منذ ثلاثة أعوام بهذا الشرف، فأعتقني، ولكنه في الوقت نفسه لم يتخلّ عني.

وفي خلال تلك الأعوام الثلاثة كانت قد حدثت تطورات مهمة في سير حياتي. فقد تزوجت صفية التركمانية. وعندما أخبرت سيدي برغبتي في الاقتران بامرأة تكون شريكة لحياتي بعد عتقي بأشهر قليلة، ابتسم وقال لي:

– وهل اخترت شريكة الحياة؟

– نعم؟

– يبدو أنك في عجلة من أمرك.

لم أجب. طأطأت رأسي إلى الأسفل في انتظار الخطوة الحاسمة لأخبره عن اختياري.

– ومن هي؟

– صفيّة...

تلاشت ابتسامته قليلاً، ولكنه قال لي:

– صفية من؟ أتقصد تلك الجارية التركمانية العرجاء؟

ساد صمت قلق بيني وبينه، ثم قال لي وهو يربت كتفي اليسري وكأنه يعتذر عن وصف زوجة المستقبل بالعرجاء.

– هل أنت واثق من اختيارك؟

– نعم.

– هو ذاك يا بني، كما تشاء.

وشعرت أن الزمان أخذ يصفو لي ويعوضني ولو قليلاً ممّا سبّبه لي من آلام وأوجاع.

و لم تقف هبات وأعطيات سيدي إسحاق عند هذا الحد، بل أسبغ كرمه عليّ ووهبني بيتاً من أملاكه الكثيرة التي كان يملكها أو من تلك التي وهبها له الخلفاء والوزراء والأمراء الذين كانوا يدركون أهميته ويحترمون ذكاءه كرجل له مكانة رفيعة في بلاط الخليفة.

بارك زواجي من صفية التي ولدت لي ابنتي الكبرى حمدونة، بعد سنة واحدة من زواجنا، ثم جاء ولداي عبد الرحمن وعبدالله تباعاً.

كانت حياتي بعد العتق والزواج تسير في أحسن حال. أنفق جزءاً من وقتي في بيت الحكمة أتعلّم من ابن الفراء والكسائي وابن ماسويه، والجزء الآخر كنت أبدّده مع سيدي إسحاق الموصلي نتدارس الغناء

ونتبادل أمور العزف ودراسة أسرار العود. كان كل شيء يسير بوتيرة هادئة وبطيئة حتى مساء ذلك اليوم الذي جاءني فيه سيدي إسحاق الموصلي إلى منزلي بعد عودته من ديوان الخليفة هارون الرشيد.

كان الليل قد انتصف أو قارب على الانتصاف. كان سيدي إسحاق يعرف أنني أقضي جُلّ وقت ليلي في فناء داري، أداعب أوتار عودي أو أطالع كتاباً جديداً أوصاني بقراءته صديقي ابن ماسويه. كان كثيراً ما يعرّج لزيارتي، وخصوصاً عندما يكون راجعاً من ديوان الخليفة هارون الرشيد. دلف من الباب المفتوح ولمحني. كنت حاضناً عودي أعزف وأداعب أوتاره، منشداً قصيدة في أثر قصيدة. اقترب مني ثم ناداني والبشر يلوح على وجهه:

- مرحى يا فتاي النجيب زرياب.

كان يبدو في قمة انبساطه. كان هذا دليلاً على أن أمسيته كانت رائعة ومميزة.

بعد أن اتخذ مجلسه، طلب مني أن أغنّي، فانتابني الخجل؛ خجل التلميذ من أستاذه. ولكن سرعان ما تتلاشى تلك النوبة من الاستحياء والخجل في جوّ الأريحيّة والتبسّط وسعة الصدر.

كنت أغني وسيدي إسحاق يضرب على الأوتار وكأنه يضرب على نياط قلبي، فأرى كل ما حولي يسبح في نسيج هشّ يشبه الحرير في نعومة ملمسه وغلالات الفجر في بواكيره.

- رهاني عليك ما زال قائماً، فأنت ستكون مغنياً ذا شأن. لديك جلد وصبر في سبيل تطوير أسلوب غنائك وصوتك يدل على ذلك.

إنني أسمع في صوتك لسعة من حزن وفرح، انبساط وانقباض، وتلك لعمري صفات لا يمتلكها إلا القلّة من المغنين.

كنت أشعر بفرح طاغ يجتاح جوانحي. أهيم في فضاء كلماته فأشعر بصدقها وحرارتها وعفويتها. كانت تفتح أمامي أبواباً مغلقة وتنسيني ماضياً ما فتىء يعذبني كلما أطلّ عليّ بوجهه البغيض.

ثم ختم جلسته معي بكلمات أعادت النوم من عيني:

- سيأتي يوم ما ستعرض فيه مواهبك في الغناء أمام هارون الرشيد، فاستعد لذلك اليوم جيداً.

٨

كان سيدي إسحاق الموصلي نديماً مقرّباً للرشيد؛ نديماً وصل إلى مرحلة صديق شخصي إذا جاز القول. وصل إلى تلك المرحلة لأنه كان رجلاً قادراً على تطوير ذاته والارتقاء بملكاته وبمواهبه الكثيرة لتكون مكسباً شخصياً له ومبهرة ذات بريق أخّاذ لمن يجالسه.

قرأ كتباً كثيرة، وألمّ بكمّ وافر من المعرفة. أخذ فنون العزف وطرائق الغناء عن "زلزل منصور"، المغني الشهير الذي كان أحد موالي والده إبراهيم الموصلي. كانت له بصمة واضحة على حبه للغناء وللعزف. كان يدين بالفضل ل"زلزل"، وكثيراً ما كان يترحّم عليه، وعندما يأتي ذكره في حديث ما، تمرّ سحابة من حزن تخيّم على ملامحه لبرهة وجيزة.

كان إسحاق الموصلي فارسي الأصل، ولد في الري. وقد فضّلت الأسرة الرحيل من الري إلى بغداد، عاصمة العالم الجديدة، التي بدأ نورها يضيء ويغطي على ما سواه. تفوّق على كثير من رجال البلاط من فئة العلماء والأدباء والمغنين؛ تفوّق على مخارق ويحيى المكي وابن جامع. وفوق ذلك كان ملمّاً بعلم الحديث والفقه وعلم الكلام. كان أستاذه في علوم التاريخ والأدب الأصمعي، العالم الشهير، ونديم الرشيد المفضل. استطاع في لجّة

القصور أن يجد له مكاناً يليق به وبمواهبه الكثيرة والمتعددة. فهو لم يكن يجيد الغناء فقط، بل يحفظ الكثير من شعر العرب وأيامها وتواريخها. شقّ طريقه أمام الواشين والمتزلفين ومنتهزي الفرص والحسّاد أيضاً...

"ماذا تريد الناس من رجل يعشق الحياة ويحول وجهها المظلم إلى نور بهي يصل إلى أقصى جنبات الروح؟".

هكذا كان يقول لي.

وقد كان محقاً في كل ما قال.

كان يكتفي بصوته وبعوده وعلمه وحسن حديثه وأفكاره الخلاّقة.

لم يكن سيدي إسحاق الموصلي متزوجاً في هذه اللحظة؛ أقصد حتى بعد موت زوجته قبل عشر سنوات. كان اسمها "دوشار"، اختارتها له أمه التي كانت تحمل الاسم نفسه. بقي وفيّاً لذكراها. وقد أثار هذا الوفاء حسد الجواري في البيت الكبير، لأن كل واحدة منهن كانت تطمح إلى أن تكون خليلة له أو عشيقة، ومن ثم ربما تكون أم ولد إذا ابتسم لها الحظ.

ولكنه كان في هذه الناحية أصمّ أبكم وأعمى!

كثيراً ما كان يعود إلى المنزل مع بواكير الفجر مبتسماً منشرح الصدر، وإن أطلّ من عينيه ذلك الحزن الدفين الشفيف. يضع عوده في مكانه المعتاد بحنوّ أم تضع ولدها في مكان نومه برفق وتؤدة. يسير بخطواته نحو نافذة حجرة نومه التي تطل على نهر دجلة. كان يرسل ببصره نحو النهر المستكين في أحضان الليل الموشك على الانصرام. كان يستمع إلى همهمات النهر وحفيف أغصان الشجر. يرخي السمع لأصوات الفجر القادم وقد اكتسى الليل بنور من سحر وخيال. ثم بعد قليل سوف يذهب إلى مخدعه فينام.

كنا جميعاً نحفظ عاداته المتكررة في يومه...

في الصباح يكون لذيذاً كقطرة عسل يمتصها المرء من فم لحسناء لعوب. يصحو مبكراً سواء أنام مبكراً أم متأخراً. كان ينهل من دِعة الصباح. يقرص خدود جواريه بحنوّ. كنّ يحببنه كأب وليس كسيد مطاع الكلمة، ربما بعضهن وليس كلهن بكل تأكيد. ففيهن الطامحات إلى أبعد من ذلك بكثير. كنّ يستأنسن بحديثه العذب ويعشن في كنفه الرحيم والفضفاض الذي اتّسع لهن من دون استثناء أو شروط. لم يزرع فيهن خصلة الاستئثار التي تنقلب إلى بغض وكره في غالب الأحيان. كان يزرع اللين فيجني المحبة. يحصد حبّ القلوب بالتآلف والحنوّ ويتغاضى عن الصغائر والسفاسف. يستحسن الحسن ويشيد به، ويقلّل من فداحة القبح والضلالة...

كنا بمجرد إفاقته نجتمع حول سريره. خليط من خدم وحشم ومريدين، ذكوراً وإناثاً. بعضنا يشاركه الجلوس على السرير، والبعض يكتفي بالجلوس على الأرض. كان يبتسم لمرآنا نحيط به، يغمض عينيه جذلاً ويفتحهما ببطء. كان يقول:

– هاهو كنزي معي أينما كنت، ويأبى أن يفارقني...

ثم يبدأ بسؤال كل فرد منّا عن همومه وشجونه، فيمسح الدمعة ويكفكف العبرة ويلتمس الحوائج. يمسح على الرؤوس ويشدّ من الأزر قبل أن ننخرط معاً في مشاركته إفطاره، ثم ينفضّ كل واحد منا وقد تبدّلت به الحال إلى حال من الراحة والرضا. تصبح القلوب مفعمة بحب الحياة وتستحق الشكر والعرفان بأن ألقت بنا في كنف هذا السّيد الرحيم...

كان هذا هو الوجه اللين فقط لإسحاق الموصلي...

أما الوجه الآخر المليء بالندوب والقبح فقد عرفته في قادم الأيام.

٩

هل سأصبح مغنياً ذات يوم؟

هل أنا حسن الصوت ومؤهل لذلك بالفطرة كما قال سيدي إسحاق؟

كان السؤال مرعباً وينفضني نفضاً.

أما سبب الرعب فقد كانت طريقة تجهيز المغني طويلة ومعقدة. تتخذ أساليباً قد تبتعد عن اللطف لتنتحي طريقاً شاقّاً ومؤلماً. لحسن الحظ لم أجربها في يوم، فسيدي إسحاق قال إنني لست في حاجة إليها، فصوتي جميل ولا يحتاج إلى التهيئة التي يحتاج إليها المبتدئون.

كانت تجري تهيئة المغنين الذين يتلقّون علوم الغناء على يد سيدي إسحاق في تلك الحجرة المنزوية بعيداً عن مدخل الدار. حجرة واسعة نوعاً ما. طولها عشر أذرع ومثلها عرضاً. كان لا يوجد فيها سوى فرش من حصير نال منه الزمن ووسادة من قطن يجلس فوقها المغني المبتدئ، ثم تبدأ الطقوس والفحوصات التي تشير إلى وجود المغني الجيد من السيّئ. يقف سيدي إسحاق على بعد خطوتين من المغني المتدرّب، ثم يطلب منه أن يصيح بأعلى صوته بكلمة "يا حجام"،

ويطلب منه بإلحاح أن تأتي تلك الصيحة من أعمق الأعماق، ثم تبدأ في التلاشي رويداً رويداً من دون أي انقطاع للنفس. يحدث في أحيان كثيرة أنه إذا تلاشت بعض نبرات الصوت داخل جوف المتدرب فإن سيدي إسحاق يشدّ على بطنه قطعة من جلد ثور حتى لا يرتد الصوت إلى الداخل.

أما أقسى هذه الاختبارات وأفظعها فهو إدخال قطعة من خشب، سمكها ثلاث أصابع وطولها حوالى شبر، في فم المتدرب، وتمكث في فمه ثلاثة أيام لا يتخلّص منها إلا حين تناول الأكل أو لشرب الماء فقط، والقصد منها ألا يطبق المتعلّم شفتيه في الوقت غير الملائم أثناء تدرّج الصوت، إما انخفاضاً أو ارتفاعاً!

وبقدر الصبر والجدّية، فإن المتدرب سوف ينال الرضا والرعاية والاهتمام.

كثير من هؤلاء المتدربين لم يطيقوا الصبر على تلك المقدمات والإجراءات الغريبة والصعبة، ففرّوا. لم يبق منهم إلا من يريد أن يستمر بالفعل، ولديه خامة صوت جيدة ونفس لا ينقطع في الوقت غير الملائم. كان سيدي إسحاق يقول إن الصوت الجيد يعلوه قليل من الشوائب ويحتاج من المعلم إلى أن يجلو تلك الشوائب ليكون صوتاً مؤهلاً للغناء. لحسن حظي فقد تجاوزت كل تلك المقدمات. لم أتعرّض لها. سيدي إسحاق يقول إن صوتي جميل. صوت خام فيه لوعة وأسى وفرح؛ صوت يجمع كل الأضداد بدقة وشفافية. وقال لي لن أحتاج إلى تدريب المبتدئين لكوني مغنياً بالفطرة!

وكم أسعدني هذا الرأي، وكان برداً وسلاماً على قلبي.

في اللحظات التي يقلّ فيها تدريبي لنفسي، كنت أنحني على عودي الخاص. أحضنه كما تحضن أم رؤوم ولدها. أداعب أوتاره الخمسة. كان العود يئن تحت أصابعي، فينشرعبيراً من الأصوات التي تأخذ بمجامع القلوب.

لم أكتفِ بذلك...

فقد طوّرت نفسي وقرأت الكثير من المخطوطات ونهلت من معينها في بيت الحكمة. كنت أتصيّد بالذات الشعر والأبيات التي تستخفني بالطرب وأدندن بكلمات قصائد طالما ألهبت المخيلة وعبثت بالقلوب ورقصت لها الأبدان فرحاً وانتشاءً.

كان بيتي يبعد عن قصر سيدي إسحاق مسافة لا بأس بها. كان قريباً من "باب الشعير" الذي يلاصق "الكرخ" من جهة الجنوب. كنت في أحيان كثيرة أزوره ونتنادم معاً على ضفاف دجلة. يداعب عوده وأداعب عودي. كان يتمايل طرباً من عزفي ويقول لي وقد أرسلت عيناه بريقاً أخّاذاً:

- زدني...

وكنت أزيد وأزيد حتى ينبلج الصباح، فننهض كل إلى سبيله ونحن ننتزع خطواتنا انتزاعاً في بواكير الفجر.

كنت قد فتّحت مداركي ووسّعت آفاقي، بجهدي الذاتي. تعلّمت أن الإنسان كلما تعمّق في طلب المعرفة يشعر بمدى جهله وضآلة علمه. لا أنكر أن سيدي إسحاق قد زوّدني ببعض الكتب. كان يجلبها لي من بيت الحكمة التي أنشأها الخليفة هارون الرشيد. هذا الخليفة الذي كثيراً ما سمعت سيدي يتحدّث عنه وعن مجلسه

العامر بالشعراء والخطباء المفوّهين ورواة الأخبار وعلماء البلاغة واللغة والفلك. كان يتحدث عنه باحترام كبير، ولطالما سرد عليّ نتفاً مما يحدث في مجلس الخليفة، ويسرد على مسامعي كشفاً جديداً في علم ما من العلوم، أو أخباراً وقصصاً ونوادر عجيبة لا يكاد يصدقها عقل يأتي بها الندماء والمحدّثون. وفي لحظة ما كان يقطّب ما بين عينيه ويحدثني عن الحروب الصغيرة والكبيرة التي تحدث في البلاط بسبب التنافس ومحاولة إثبات الوجود والتي تحدث غالباً بين الشعراء والعلماء والخطباء...

كان يقول عنها إنها في غالبها حروب غير نزيهة وغالباً ما تطفح بالخسّة والنذالة.

وكنت سأكتفي من سيدي إسحاق بذلك، ولكن كان للزمن رأي آخر.

١٠

لن أنسى ذلك اليوم الذي طرق فيه سيدي الباب عليّ في بواكير المساء وقال لي منشرحاً:

– ها هي اللحظة المناسبة قد حانت. سترافقني غداً إلى مجلس الخليفة هارون الرشيد. لقد حدثته عنك وعن موهبتك فلتستعد لذلك.

قال ذلك على عجل وكأنه مسلّمة أو أمر بدهي لا يستحق الوقوف أمامه كثيراً. قال كلماته تلك ثم مضى عائداً الى بيته.

أما أنا فبقيت واقفاً مذهولاً في مكاني...

ماذا يقصد سيدي إسحاق بكلامه ذاك؟

مجلس الخليفة هارون الرشيد؟ أيعقل ذلك؟ ولماذا؟

كنت في غمرة السنين التي مضت قد نسيت القصور بعد تلك السنوات التي عشتها في كنف مولاي الخليفة المهدي والد الخليفة الحالي. كانت تعنّ لي مثل حلم لذيذ ولكنه بعيد، وقد ذهبت بخيرها وشرّها. كنت أريد أن أبعد نفسي قليلاً عن حياة القصور حيث لا يملك المرء فيها مصيره وتتشكّل حياته وتسير بحسب آراء وأهواء غيره من الملوك والسادة.

لم أفق من صدمتي إلا بعد نداء زوجتي لي من إحدى حجرات البيت. دلفت إلى داخل الدار ساهماً وواجماً، وعندما لمحت وجومي سألتني عمّا حلّ بي، فأخبرتها بما قاله سيدي إسحاق الموصلي عن تلك الدعوة العريضة والمفاجئة لمجلس الخليفة. زمّت شفتيها وانقبضت أسارير وجهها، ثم نظرت في وجهي وقالت لي بتصميم وعزم:

– لا تذهب.

– و لم؟

– قلبي يحدثني أن أمراً جللاً سوف يحدث. لا تذهب.

ثم مضت باكية ومسرعة الخطى إلى إحدى الحجرات.

لم ألحق بها. فقد كنت أقلّب الأمر في ذهني وأقول لنفسي: وهل أستطيع الرفض؟

لا. لن أستطيع أن أرفض مثل تلك الدعوة. كنت أدرك أن عواقب الرفض ستكون وخيمة؛ والله يعلم إلى أين ستأخذني كلمة "لا" هذه لو قلتها في وجه سيدي إسحاق...

سأذهب؛ نعم سأذهب وليكن ما يكون...

ماذا يريدون مني؟ أن أغنّي؟ سأغنّي. وما في ذلك؟ إنها صنعتي أولاً وأخيراً. ألست متخرّجاً في مدرسة إسحاق الموصلي في الغناء؟ ألا يقول سيدي إسحاق الموصلي إنني مغن على قدر كبير من البراعة؟ اذن هذا هو وقتها لكي تبرز للعيان. هذا هو الوقت المناسب للانطلاق إلى آفاق أرحب وأوسع. فربما ابتسم لي الحظ وكنت من رجال البلاط ومن ندماء الرشيد الذين كان يختارهم بعناية.

لم أضع لحظة واحدة، فقد بدأت بالاستعداد المبكر لذلك اللقاء.

وطوال اليوم كنت في شغل شاغل...

تأملتُ ملامحي في المرآة مئات المرات. دندنت لنفسي بقصائد لشعراء مشهورين ومغمورين محاولاً وضع النغم واللحن المناسب لها. كنت في حالة فرح وإن زكمت أنفي رائحة غريبة هي خليط بين رائحة الخطر والسعادة. كان قلبي يرجف وأقول مخاطباً نفسي أحياناً:

– ما لي وما للخلفاء والأمراء؟ لقد عرفتهم عن قرب معرفة تكفي لأكون مقتنعاً بالبعد عنهم بقدر المستطاع.

ماذا يريد مني سيدي إسحاق؟ أنا لا أستحق كل هذا.

وفي تارة أخرى، كنت أمجّد نفسي ولا أبخسها حقها. نعم. أنا رجل موهوب. أتقن الغناء، وأجيد العزف على عودي، وأحفظ الكثير من القصائد، وبارع في رواية الأخبار، ولي إلمام غير بسيط بعلم البلاغة وعلم الكلام وتواريخ الأمم والملوك. لن تذهب هباءً مجالساتي الطويلة لابن الفرّاء والكسائي وابن ماسويه في بيت الحكمة. وحتى تلك العلوم التي أخذتها شفهيّاً من فم سيدي إسحاق ما زالت راسخة في عقلي وأستطيع جلبها متى أشاء لتكون حاضرة على لساني. ولو لم يجد فيَّ سيدي ما يستحق الاهتمام لما قرر أن يزجّ بي في بلاط أعظم ملوك الدنيا: هارون الرشيد...

أن أقف وجهاً لوجه أمام خليفة المسلمين؟ أن أحظى بدقائق يستمع فيها إلي؟ وماذا سيحدث إذا أطربته؟ هل سيتمايل طرباً ويخلع علي خلعة ثمينة؟ وإذا لم أُحسن الغناء – لا قدّر الله – في حضرته المهيبة، هل سيطردني من مجلسه، وبذلك أودّع وأتخلى عن الشيء الذي أحببته

إلى الأبد: الغناء. وأخسر سيدي إسحاق. وسيبقى وجهي منكساً في ثرى الأرض إلى أبد الآبدين؟

يا رب السموات والأرض...

ما هذه المشاعر التي تنتابني؟

كانت قوّية... مزلزلة لا قبل لي بها. أريد أن أعود إلى ذاتي وأشد من أزري، ولكن عبثاً...

هذه المشاعر المختلطة كانت تروح وتجيء. وبالرغم من أني كنت أنساها في خضمّ الاستعداد لهذا اللقاء المرتقب، رافقتني حتى جاء المساء؛ مساء اليوم الموعود.

قال لي سيدي إسحاق في ظهيرة اليوم المحدد للقاء:

– لا بد من الانتظار حتى يتخفّف الديوان من القادة والمستشارين والوزراء والشعراء والأدباء والعلماء والمهرجين، ويعرض الحاجب كل ما لديه من رسائل على الخليفة، وبعد أن تُحلّ أمور الدولة الكبيرة وينظر في حال الرعية وأمورها. وفي المساء يزور الخليفة باقي الأجنحة على عجل. كان يزور مقصورات زوجاته ومحظياته المفضلات. ومع انقضاء الثلث الثاني من الليل يكون لقاؤه مع الندماء والشعراء والمغنين المفضلين لديه، الذين كان يختارهم بعناية فائقة كما أخبرني سيدي إسحاق الموصلي بذلك.

كل ما سبق كان مجرد سرد مبسّط من سيدي إسحاق للساعات الأخيرة من يوم اعتياديّ لخليفة المسلمين. هذا ما يجب أن أتوقّعه وأحاول أن أحسب لحظاته بمقدار صحيح.

حتى زوجتي صفية، في لحظة مكاشفة أخيرة منها لمخاوفها من

هذه الدعوة، قد يئست من إقناعي بعدم الذهاب بعدما سردت على مسامعها كم من الأمور السيئة التي قد تحدث لنا فيما لو أحجمت عن الذهاب، فاقتنعت على يقين أو على مضض لا أدري. وطيلة اليوم الموعود كانت صفية تدور حولي. كانت تتفقدني في كل لحظة وحين، وربما هي المرة الرابعة التي استحممت فيها وتحت إشرافها المباشر. هذّبت شعر رأسي وذقني، ومسحت بماء الورد عنقي ووجنتيّ. فردتْ أمامها أفضل ثيابي لكي تختار أجملها وأكثرها بهاءً وجمالاً وجِدة. وانزويت أنا في ركن بعيد من البيت. كنت في لحظاتِ الهدوء التي أحاول اختلاقها عنوة أمسك بعودي. أداعبه وأفكر في ما سأقدمه من ألحان للخليفة. كنت كلما أتذكر أنه سيكون محدّقاً إلى وجهي ينتظر مني أن أعزف له شيئاً جديداً يسرّه ويريح نفسه ويثير عجبه، أشعر بالرعب يجتاحني. إنه امتحان ليس باليسير عليّ. ولكنني كنت واثقاً من اجتيازه، بل والإبداع فيه. وفي لحظات أخرى كنت أبدو مثل طائر صغير سقط عليه المطر فبلّل ريشه فشلّ حركته وكادت حبات المطر تعمي عينيه، عندما أفترض الفشل في مهمتي الأولى.

ثم ما هي القصيدة أو القصائد المناسبة التي سأغنيها أمام الخليفة؟ ما هي النغمة المناسبة؟ والبداية المناسبة؟ والتصرّفات المناسبة التي من الممكن أن أتقنها لكي تليق بالخلفاء والأمراء...؟

ولكي أخرج من كل هذه الأعباء الثقيلة قررت أن أكون على سجيتي من دون أي تكلّف. سأقدّم كل ما لديّ، وفي النهاية سأمضي في طريقي وليحدث ما يحدث. وقد ارتحت بعدما حدّثت نفسي

بهذا. وقررت انتظار اللحظة المهيبة التي سيقودني طريقي فيها إلى ديوان الخليفة الرشيد.

في منتصف الثلث الثاني من الليل جاء سيدي إسحاق. كان يلبس عباءة مقصبة أطرافها بجدائل من ذهب وعمامة خضراء كانت محوكة بخيوط من الديباج. كان وجهه ينضح بالإشراق وأعطافه يتضّوع منها العطر ويطفح البشر من محيّاه...

وعندما فتحت له الباب قال لي مبتسماً:

– هل أنت في كامل استعدادك؟

توقفت هنيهة قبل أن أقول له:

– نعم يا سيدي.

– إنني أعوّل عليك يا فتاي فلا تخذلني.

ما هذه الكلمات الكبيرة؟

إنها ثقيلة الوطأة عليّ. كلمات تضعني على محك المسؤولية وتحقن فيّ رعباً يكاد يفجّر عروقي.

– هل سنذهب الى قصر الخليفة مشياً على الأقدام؟ ألا نستعين بركائبنا أو خيولنا؟

ابتسم إسحاق الموصلي قبل أن يقول:

– لا أريد أن تفوتك متعة السير في شوارع بغداد في مساء مقمر كهذا المساء. إنه شيء أشبه بسحر لا يمكن وصفه.

أمسك سيدي إسحاق بيدي ثم اقتادني إلى حيث يكون قصر هارون الرشيد. الخليفة المهاب، ناشر العدل في جنبات دولة أخذت تتسع يوماً بعد يوم.

١١

"هبة الله" هذا هو معنى كلمة بغداد.

كانت بغداد منذ أن وضع أساساتها الخليفة أبو جعفر المنصور قد أصبحت ملاذاً لكل فئات البشر. جاءوا إليها من كل صقع وحدب وصوب، وامتلأت بغداد بالأعراب والكرد والديلم والفرس والأحباش والتركمان...

كانت بغداد مدينة دائرية الشكل. من السهولة بمكان أن تسير من أي جهة لتصل إلى المركز حيث يكون قصر الخليفة. وقد سيق قرابة مئة ألف فلاح من القرى والدساكر المجاورة لبناء بغداد. في أول ابتداء بنائها أحاط بالمدينة سور حصين إضافة إلى السور الذي يحيط بمقر الخلافة، وفي كل سور من السورين، الداخلي والخارجي، توجد أربعة أبواب يتصل كل بابين متقابلين برواق مسقوف أقيمت فيه ثكنات للجنود والحرس لتوفير الحماية لأمراء البيت العباسي.

وحتى هذه اللحظة لا تزال بغداد مدينة تتأهب لكل الاحتمالات الحسنة والسيئة على السواء.

في سيرنا أنا وسيدي إسحاق، اخترقنا شوارع وساحات وبيوتاً

عدة. ولمحت في الجهة الغربية من بغداد البيمارستان بحجراته التي يبلغ عددها مئة وعشرين حجرة قابلة للازدياد في أي وقت. كان لونها الطيني الكئيب يشيع في النفس رهبة وخوفاً. كانت تفصله عن النهر مساحة كبيرة من الأرض الفضاء المزروعة بأشجار نخل سامقة. لا أدري لماذا تخيّلت مدى العذاب الذي يكابده ذلك الطبيب البارع "جبرائيل بن بختيشوع" الذي عيّنه الرشيد قيّماً عليه. كان يبدو هادئاً وفوانيسه مطفأة ويعمّه الهدوء، ولكنه يمور في الداخل بكل الاعتلالات العقلية الخطرة وكل الأمراض المستعصية. ارتعد جسدي فصرفت بصري عنه وأستأنفنا المسير.

اجتزنا السوق الكبير مروراً بالكرخ، ثم حي الشماسية واخترقنا سوق الدباغين وسوق الخيالة والماشية، وفيه آذتني روائح روث وأعلاف البهائم. وفي سوق مجلدي الكتب والنساخين شممت رائحة لا يخطئها خيشومي، رائحة المخطوطات والمكوّنات التي تستخدم في تعبئة دواة حبر الكتابة. مررنا بسوق بائعي النقل والمشموم المتلاصقة. كانت الروائح التي يحملها سكون الليل هنا ألطف قليلاً. روائح التين والجوز واللوز والتوابل تقتحم جمجمة رأسي بقوة. كنت أشعر بنفسي أسير فوق السحاب لا على ثرى الأرض، وعقلي مجرد قربة منفوخة من الهواء. لم أشعر يوماً ما أن بغداد مدينة غريبة عني إلا هذه الليلة. بدت لي كأنها مدينة جديدة وغريبة عليّ وأطأ أديمها لأول مرة في حياتي.

كانت لمحة من خيال عنّت لبصري في ساعة حلم مبهج. خرافات وأساطير وأحداث ووقائع تتجاور ولكنها تشكّل ذلك المزيج العجيب

من الرهبة والخوف. تباطأت خطواتي حتى توقفت تماماً. لم أنتبه إلا ويد سيدي إسحاق تهزّني حتى كاد عودي يسقط من يدي.

– هييييه إلى أين ذهبت؟

– لا شيء يا سيدي.

– إذن دعنا نكمل المسير. لم يتبقّ إلا القليل.

واستمر مسيرنا حتى بدت الحركة تقلّ والمساحات بين البيوت تتسع ورؤية الجند المدجّجين بالسلاح تقتحم العين وتوتّر فضاء المكان...

ومئة خطوة أخرى وفيها تغيّر كل شيء...

ضاق مدى الرؤية في عيناي وتلاشت الأصوات في ما حولي عندما لمحت فسحة من الأرض كثيفة الأشجار تتوسطها تلك الكتلة الصماء من المباني المهيبة الشكل التي يتكوّن منها القصر؛ قصر الحكم ومثوى خليفة المسلمين الأكبر.

كان قصر الخليفة مكلّلاً بقبة خضراء عليها تمثال جواد ويفضي إلى القبة الخضراء باب مكسوّ بالمرمر ومحلّى بالذهب يسمى باب الذهب. يلوح أمامي قصر "الخلد"، قصر الخليفة وزوجته المفضّلة زبيدة، وخلفه تماماً يقبع قصر "الوضاح"، القصر الخاص بالخليفة هارون الرشيد يشرئب بكل جبروت في سماء حالكة السواد تزينها نجوم مضيئة، وبدت لي في حجم أكبر من حجمها المعتاد.

ووصلنا أخيراً...

توقفنا أمام البوابة الضخمة العريضة. كانت مطعّمة بصفائح من النحاس، وأعلاها كان على شكل قوس هائل الحجم، وحولها حراس

أشدّاء ذوو أجساد ضخمة ومدجّجون بالسلاح، وعضلات زنودهم المفتولة تتحرك بقوة وحزم، وعيونهم تقدح بالشرر...

بعد فترة توقف لا بأس بها فُسح الطريق أمامنا للدخول إلى ساحات القصر الخارجية التي كانت تحيط بها جدران بالغة الطول وشديدة التحصين بالجنود والمتاريس...

إنني حتى هذه اللحظة أتهيّب التوصيف لهذه اللحظة بالكلمات.

كان أول ما واجهناه هو غابة من نخيل تمتد في صفوف متوازية، وتتوسطها مساحات خضراء بهيّة تسطع القناديل في كل زاوية منها، وأشجار تتشابك في مكان وتتفرّق في مكان آخر، وحجرات متلاصقة حولها حركة دائبة من الحراس والخدم والحشم كلّ يسير في خط مرسوم له. هنا يقلّ الكلام وتكثر الإيماءات وتخفت الهمسات حتى تكاد تختفي.

بدت لي تلك الليلة شديدة القتامة وتموج في كسف من الظلمات. وقدحت في ذهني فكرة أن الجهل أب للخوف. فأنا أجهل ما أنا قادم إليه بقدميّ وبمحض إرادتي. ولكنني لو أمعنت الفكر قليلاً لأدركت أن كلّ ارتباكي هذا لا مبرر له على الإطلاق.

إنني شخص قد أصبحت مرغوباً وأدعى إلى المجالس التي يتخفّف فيها المرء من مؤونة التكلّف ويصبح على سجيته وطبعه من دون تلوّن أو مداراة...

وانتابني هدوء غريب بسط عليّ جناحيه، فغدوت مثل كتلة صماء قدّت من حجر صلب.

وانتظرنا في الخارج ريثما يُسمح لنا بالدخول.

لم يبق أمامنا للدخول إلى قاعة الخليفة الخاصة سوى ستارة من قماش أسود غليظ السُمك ووراءها باب مقوّس من أعلاه؛ باب ذو درفتين ضخمتين يقف على كل درفة منه حارس ضخم الجسد عابس الوجه ومدجّج بالسلاح. كان ذاك "باب الذهب"؛ الباب الذي قد تدخل إليه ولا تعود أبداً من حيث أتيت. أمسك سيدي إسحاق بيدي ثم قال لي بحزم بينما عيناه معلقتان على الباب الكبير الموصد:

– توقف. انتظرني هنا ريثما أستأذن خليفة المسلمين لدخولك.

توقفت. كم كنت في حاجة إلى مثل هذه الوقفة التي ساعدتني كثيراً لكي ألتقط أنفاسي وأُلمّ شتاتي وأرتّب الأفكار المتصارعة في ذهني وأهدّئ من روع جسدي المهتز وفكري المرتبك والمشوش...

١٢

كم مضى من الوقت في وقفتي تلك؟

لا أعلم، ولكني كنت خلال هذا الوقت قد استعدت هدوء نفسي وسكن خوفي وروعي قليلاً. في أثناء وقوفي ذاك، كان عدد الخارجين من تلك الحجرة الموصدة أكثر من الداخلين إليها.

كانت الوجوه تعبّر عمّا يعتمل في صدورها...

لاحظت أن الوجوه الخارجة يعلوها الهمّ والتفكير وتبدو منهكة، أما الوجوه الداخلة فهي في الغالب وجوه يغلب عليها المرح والفرح والخفّة. ألمح ذاك جليّاً في الحركة المتأنية الودودة والعيون اللامعة ببريق غامض لم أستطع تقديم تفسير له.

في أواخر الثلث الثاني من الليل دخلت إلى مجلس الخليفة...

في خطواتي الأولى كنت أحاول أن أسيطر على قلقي المتصاعد. أن ألغي تفاصيل التردد وأبرز تفاصيل الفرح على وجهي وحركتي. فعلى بعد خطوات قليلة يلوح لي عالم مشرق واسع الأفق.

قلت لنفسي أحدّثها: لا بد أن ترمي بكلّ شعور سلبي خلفك وتملأ خافقك بالدفء والسعادة.

لمحت حراس أشداء صامتين انتشروا أمامي فجأة. كان أضخمهم رجلاً شهيراً له صيت في بغداد اسمه "مسرور"، وقد أضاف الناس إليه لقب: سيّاف نقمة الرشيد. لمحته. رجل هائل الجثة أسود اللون، ضخم اليدين وفي عينيه احمرار مرعب. كان صوته يعلو قليلاً لتنظيم الدخول إلى مجلس الخليفة ويجوس بيديه هنا وهناك يلمس الأجساد ويحلق في العيون بشكل مخيف. لمح عودي في يدي اليمنى وسألني بصوت كقصف الرعد: ما هذا؟ وقبل أن أجيبه خطفه من يدي ورفعه قليلاً أمام بصره ثم سلّمه لي. مررت بجانبه في سلام. كانت الظلال تتكاثف أمامي، وأكثرها سحراً وخلباً ينوس من بعيد كنقطة ضوء تلوح من نهاية طريق مقفر.

لا أدري لماذا تذكرت عودي في تلك اللحظة؟

بدا لي كأنه هو من يقودني في خطواتي الأخيرة نحو خليفة المسلمين. كنت ممسكاً به. أشدّ بأصابعي على عنقه الطويل وأتحسّس بأناملي أوتاره الخمسة المشدودة. كان ملاذي الوحيد في تلك اللحظة...

لست غريباً على القصور، ففيها ترعرعت وبخطواتي درجت فوق أديمها منذ أيام سيدي المهدي والد الخليفة الحالي. ولكن للرشيد مهابة وعظمة يشعر بها كل من سمع عنه أو رآه. سمعت عنه كلاماً كثيراً. عن عدله وصرامته وذكائه وكذلك قسوته مع خصومه. كان ما فعله منذ سنوات قليلة ببني برمك أقرب الناس إليه قد أضاف إليه مهابة كبيرة، وما زالت مصيبة التنكيل بهم ماثلة في عقول الناس يستذكرونها برعب وخوف كأنها حدثت أمس. سمعت من سيدي إسحاق قصصاً

تشبه الخيال عن فتوحاته في مشارق الأرض ومغاربها، وسمعت عن إخضاعه لملوك الأرض شرقاً وغرباً وتفضيله للعلم والعلماء، وسمعت كثيراً عن حبه للحياة أيضاً. وقد سمعت أحد زوار سيدي إسحاق يصف الرشيد بأنه رجل يحمل في يده اليمنى سيفاً وفي اليد الأخرى وردة.

نعم. كان مثل ذاك بل أكثر...

ثم كان اللقاء...

في تلك القاعة الفسيحة والواسعة تصغر الأجساد وتبدو ضئيلة أمام عظمتها واتساعها. تتوسطها طاولة كبيرة رصّ فوقها الكثير من الكتب. لا شك في أنه قد جيء بها من دار الحكمة؛ تلك الدار التي أولاها الخليفة جلّ اهتمامه وجعل يوحنا – الذي أصبح يدعى يحيى في ما بعد – بن ماسويه قيّماً عليها، وأوكل إليه أمور الترجمة والنسخ والتجليد، حتى غدت تكبر صفوفها وأدراجها يوماً بعد يوم. ابن ماسويه صديقي المقرّب. التقينا بادئ الأمر في بيت الحكمة. كان لقاءً سهلاً. قادني إلى لقياه سيدي إسحاق الذي كان دائماً ما يزور دار الحكمة للبحث في كتاب أو السؤال عن مخطوطة. في ذلك اللقاء بدونا كأننا يعرف أحدنا الآخر منذ زمن طويل. نحن رفقاء الكتاب، رفقاء المعرفة، رفقاء رائحة المخطوطات والساعات الطويلة التي تمضي كأنها ومضات شحيحة من الزمن.

تالياً، كثيراً ما كنت أزوره وأجده عاكفاً محققاً في هذا الكتاب ومترجماً ذاك. يمضي أياماً طوالاً إلى درجة تكبر فيها لحيته الصهباء بسبب أصول أمه الرومية. كانت من جزيرة صقلية. قال لي إنه بحكم

وجوده في دار الحكمة فقد كانت المخطوطات تأتي من مختلف البلدان، فيلتقي بتجار من بلاد الروم ومن بلاد أفريقيا، عرف منهم، وعن طريق السؤال، أن جزءاً كبيراً من عائلته قد تفرّق في سائر أنحاء الأرض. حتى الأسماء تغيّرت من أسماء أعجمية رومية وصقلبية إلى أسماء عربية خالصة، ومن إحدى هذه الصدف عرف أن ابن عم له يعيش في القيروان، بل هو قد أصبح أحد القادة الكبار في أحد جيوش الأمير إبراهيم بن الأغلب حاكم القيروان. كانا يتبادلان الرسائل كلما سنحت الظروف.

جمعتني به أحاديث طويلة فتحنا فيها الكثير من الكتب وناقشنا العديد من الأفكار. بتنا أصدقاء حرف. كان يزورني وأزوره بعد زواجي وامتلاكي بيتاً وعائلة وولدين ذكيين وابنة جميلة اسمها حمدونة. كنت أتمنى أن يقع بصري عليه في هذه اللحظة بالذات لكي أستمد منه القوة والعون في هذه اللحظة المجنونة. عدت من شرودي وتلك الروائح المختلفة من مباخر كبيرة تفوح منها روائح المسك والعنبر وروائح الأزهار والفواكه تداعب أنفي. كان هناك الكثير من الطنافس والزرابي المبسوطة والستائر المسدلة التي تبعد عنك كل أسباب الضجيج. الكلّ كان يتحدث بهمس. رؤوس يميل بعضها إلى بعض في نجوى طويلة. كانت وجوهاً مليئة بالنضارة والصحة. كانت عيناي تجوسان في المكان وأنفاسي بالكاد تتلاحق. هذا ابن الفراء وذاك الكسائي وبجانبه الأصمعي، وهذا الرجل الأسود الضخم الواقف على يمينه وبيده سيف ممشوق يلمع تحت وهج الشموع والفوانيس هو "مسرور السياف". كان انتقاله إلى يمين الرشيد ووقوفه هناك كصنم

إيذاناً بعدم السماح بدخول أي شخص بعد الآن.

ثم... ثم...

ها هو هناك...

هذا السمت الهاشمي القرشي الذي لا تخطئه العيون. كان متربعاً على سرير من خشب مصقول مذهب تعلوه قبة في السقف تزيد من بهائه وعظمته...

هارون الرشيد...

ملك ملوك العالم وفاتح البلدان القريبة والبعيدة. سيد العظماء وقاهر الروم والفرس...

على يمينه امتدّ صف طويل من العلماء والشعراء والأدباء، وعلى يساره تلمح القادة وسادة الإقليم الزائرين ومن ورائهم يقف الجنود العابسون الواضعو أيديهم دوماً وأبداً على مقابض سيوفهم وأعينهم تراقب بإصرار عجيب كل الإشارات واللفتات وحتى الهنات الصغيرة.

تعلّق بصري بالخليفة رغماً عني. بدا كشعلة من نور بعيدة ومضيئة تبدد الظلام الدامس. كان بشوشاً، ولمحته يميل على رجل يجلس إلى يمينه فيهمس في أذنه بشيء ما فتعلو ضحكته على وجهه، وحينما يرفع رأسه لينظر إلى البقيّة ممن هم في حضرته، كانت الأصوات تخفت والوجوه تتطلّع إليه، وفي واحدة من تلك اللفتات وقعت عيناه عليّ، فشعرت بعرق غزير يبلل ظهري ويديّ.

١٣

في لمحة بدت سريعة وغير متوقعة، وقع بصر الخليفة على سيدي إسحاق، فهشّ وبشّ في وجهه وابتسم له كما يبتسم الأخلاّء والأصدقاء بعضهم لبعض، ثم قال لسيدي إسحاق بصوت جهوري أفزعني قليلاً:

– مرحباً بك يا إسحاق؟

رفع إسحاق الموصلي كلتا يديه ثم قال بعد أن أحنى رأسه قليلاً:

– السلام عليكم يا سيدي وطاب مساؤكم.

لم يجب الخليفة، بل أشار بيده الى إسحاق لجهة الصف الأيمن حاثّاً إياه بحركة من يده على الجلوس، قبل أن يستنأنف حديثه مع الرجل الأقرب إليه. عرفت ذاك الرجل. كان الأصمعي أقرب الرجال إلى قلب الرشيد وأبعد رجل عن قلب سيدي إسحاق الموصلي. فكلما جاء ذكره تمعّر وجهه واكتنفه غضب مكتوم. و لم أعرف سرّ ذاك الغضب حتى الساعة. كنت قد لاحظت ذاك الودّ المفقود بين الرجلين منذ زمن قليل، وقلت لنفسي إن من يعرف سيدي إسحاق يدرك جيداً أنه أبعد ما يكون عن تضييع وقته في حقد أو بغضاء...

ولكني كنت مخطئاً، على الأقل في ما يخصّ علاقتي به في نهاية

هذا المساء الحافل بكل المتناقضات.

كان الليل يمضي، وبدا مجلس الخليفة يتخفّف رويداً رويداً من الرواد. ألقى شعراء قصائدهم. كنت أعرف بعضهم والبعض الآخر لم يسبق لي رؤيته من قبل. قيلت أبيات كثيرة من الشعر، واستعرض بعض الخطباء فنون نثرهم على المسامع، ثم مع مضيّ الليل قدماً بدأ الأصفياء يبقون ويقتربون قليلاً قليلاً من مجلس الخليفة حتى أصبحوا قِلّة يمكن عدّهم على أصابع اليد...

وكأنما الخليفة انتبه إلى سيدي إسحاق فقال له وهو يقضم تفاحة بيمينه:

- ها... ماذا في جعبتك يا إسحاق؟

ضحك سيدي إسحاق ثم أنشد أمام الخليفة أبياتاً من شعر لم أتبيّن معظم كلماته... ثم التفت نحوي بنظرة خاطفة كأنما يريد أن يتأكد من وجودي بقربه، فقال موجهاً حديثة للخليفة...

- اسمح لي يا مولاي أن أقدم لك ما طلبته مني في وقت سابق، عندما طلبت مني أن أحضر بين يديكم من يتقن فناً من فنون الغناء غير الدارجة أو المعروفة. كنتم ترغبون في شيء جديد ومختلف ونمط غير مألوف في صنعتنا من الطرب، واسمح لي أن أضع بين يديكم فتى نجيباً وواعداً من تلاميذي. فتى كردي الأصل عربي الهوى، من موالي والدكم الراحل. وقد وهبه لي فأشرفت على تدريبه على أصول الغناء لكي يتقن ما يجب أن يكون في مجلس مهيب كمجلسكم العامر...

صعقت من هذه المقدمة الفخمة التي ألقاها سيدي على مسامع الخليفة، وكاد نبض قلبي يتوقف في صدري. ولكن للحظات - ويا

للعجب – بدا كل شيء أمامي يصبح سهلاً كشرب الماء. إنها ولا شك دعوات زوجتي صفية، ولا بد أن الله قد استجاب لها. هذه لحظة ذهبية ينبغي ألا تفوتني. من هذه الساعة إما أكون أو لا أكون...

كنت في الحقيقة في تحدّ مع نفسي.

سألني الخليفة بصوت بدا لي عميقاً:

– قل لي يا فتى... ما مقدار علمك بفنون الغناء؟

ثم مدّ يده إلى آنية مذهبة رُصّ فيها تفاح من كل لون، أحمر وأخضر، كبير الحجم وصغيره. تناول واحدة وقضم منها قضمة...

لا أدري من أين جاءتني الشجاعة فقلت له ثابت الجنان:

– يا سيدي – جعلك الله ذخراً للإسلام والمسلمين – إنني أحسن منه ما يحسنه الناس. وأكثر ما أعرفه منه لا يتقنون صنعته ولكنه لا يُحسن إلا عندك، ولا يُدّخر إلا لك. فإذا أذنت لي غنّيت لك ما لم تسمعه أذنٌ قبلك...

عندما توقفت، أدركت أنني قد تجاوزت الحدّ كثيراً. التفتت نحوي العيون، وتوقف الخليفة عن قضم تفاحته. ربما كان يلوك في ذهنه هذه الكلمات التي تفوّهت بها منذ قليل. والتفت نحوي بشدة سيدي إسحاق وقد بدا مبهوتاً من جرأتي وفصاحتي وثبات جناني الذي بدا له غريباً أو زائداً عن الحاجة في تلك اللحظة.

كنت أدرك أنني قد تحدّيت حتى نفسي بمثل هذا الكلام، ولكنها حرب قد استعددت لها جيداً وأملك كل أسلحتها بيدي.

أفسح سيدي المجال أمامي، ثم أشار الخليفة إلي كي أبدأ. التفتتْ نحوي عيون كثيرة ترقبني.

قال لي الخليفة بمرح:

– إذن تناول عود أستاذك ثم أسمعني ما عندك...

وجاءت الضربة الثانية مني:

– يا أمير المؤمنين وولي أمر المسلمين، إن لي عوداً نحتّه بمعرفتي وشددت أوتاره بيدي وهو أقرب لمطاوعتي من عود أستاذي...

ثم رفعته عالياً لكي يراه.

أرسل بصره نحو عودي يتأمله ثم قال بصوت لا يكاد يسمع:

– ما أراهما إلا واحداً.

فأجبت بيقين العارف:

– صدقت يا مولاي، ولكن في الظاهر فقط. ربما عودي يتشابه مع عود سيدي في الشكل والحجم وهما مصنوعان من نوع الخشب نفسه، ولكن وزن عودي يعادل ثلث وزن عود سيدي إسحاق، وأوتاره من أمعاء شبل النمر، فلها من الأصوات عند العزف عليها بعد إعدادها بشكل لائق رنّة وصفاوة وجهارة وحدّة أضعاف ما لغيرها من أمعاء سائر الحيوان. ولها أيضاً صبر وجَلَد على الضرب عليها بالريشة أو غيرها...

فصفق الخليفة بيديه جذلاً وقال لي:

– لقد أجدت يا فتى وصف عودك، فهل تجيد الغناء به كما تجيد الوصف؟

– إذا أذن لي مولاي...

أسند الخليفة ظهره على متّكئه الوثير ثم أشار إلي بيديه لكي أبدأ.

حانت مني التفاتة سريعة إلى سيدي إسحاق، فوجدت وجهه

طافحاً بالغضب ومربداً بالغيظ، ولكني تجاهلته، فقد شعرت أن هناك شيئاً ما يحرّكني رغماً عني بأصابع خفية غير مرئية. حتى الكلمات التي تفوّهت بها لا أدري كيف خرجت مني بهذا الشكل.

كان الصمت قد ساد، والعيون التصقت بيدي وجسدي وعودي... وكان لا بد أن أبدأ.

تناولت عودي بهدوء ثم بدأت بمداعبة أوتاره.

وبعد عزف شجيّ كمقدّمة، رأيت الرؤوس تتمايل يميناً وشمالاً والعيون شبه مغمضة تتشرّب لذة اللحن والنغم، إلا عيني سيدي إسحاق فقد بدتا تبرقان كعيني ذئب يستعد لافتراس طريدته.

ثم...

جرى هذا البيت على لساني وجاوبته أصابعي بعزف أذهلني حتى أنا صاحب الصنعة.

أمسكت العود، ثم قلت بصوت لم أعهده فيّ من قبل. كنت أغنّي وكأنني أغنّي لنفسي في حديقة عامرة بالأشجار والأطيار في مكان سرمدي لا يوجد إلا في الأحلام.

عرضت كل الفنون في الغناء التي أجيدها. غنّيت بحرارة وصدق. انتقلت من أبيات إلى أبيات من الشعر المختار بعناية، إلا أن الخليفة قد طرب طرباً شديداً من هذا البيت الذي ختمت به غنائي له...

يا أيها الملك الميمون طائره هارون راح إليك الناس وابتكروا...

فطرب الخليفة وتمايل طرباً من عزفي ومن بيت الشعر الذي غنيته

بطريقة متقنة وضعت فيها كل خبرتي. غنيته وكأنني كنت أغني لنفسي في خلوتي حيث أكون على سجيتي. كنت صادقاً مع نفسي وذاتي، ولذا فقد غنيت بكل إحساس ممكن...

كررت ذاك البيت من الشعر مرتين أوثلاثاً، ولمحت وجه الخليفة مزيناً بابتسامة عذبة ونفس مشرقة، ثم قال لسيدي إسحاق...

- ما هذا السحر يا إسحاق؟ والله لولا أني أعلم صدقك لي على كتمانك إياي لما عند فتاك هذا وتصديقي لك من أنك لم تسمعه من قبل لأنزلت بك العقوبة لتركك إعلامي بشأنه، فخذه إليك واعتمد بشأنه حتى أفرغ له، فإن لي فيه نظراً...

ما هذا؟

كأنها كلمات رصفها الغيم في جدائل من ذهب فارتجف لها قلبي وتنمّلت أصابع قدمي. وعندما التفتُ إلى سيدي إسحاق وجدت وجهه مصقولاً وجامداً وإن بدت على محيّاه ابتسامة صفراء لا معنى لها.

وبدأت أشعر بالخوف...

١٤

في طريق العودة في الثلث الأخير من الليل أصبحت علاقتي بسيدي إسحاق في مهب الريح. كل شيء بان واتضح. انكشف الغطاء عن مرجلٍ ينفث كل نتانة في النفس البشرية. الحسد والغيظ والضغينة والشعور بفقدان توازن العقل والأفكار وتوتر الأعصاب والغضب الذي لا يحدّه حد.

ولكني ارتأيت التأنّي قبل أن أصدر حكمي الصحيح على ما يفعله معي في هذه اللحظة.

كنا نسير معاً وعتمة خفيفة رائعة تميّز الليالي المقمرة التي تغمر كل ما حولها من طرقات بغداد ودروبها، وتلامس بخفّة أسطح البيوت وذوائب الأشجار بغلالة شفيفة من ضوء شاحب. كان ليلاً بغدادياً بامتياز. في طريق العودة لم يكلمني سيدي إسحاق الموصلي. كان في حالة غضب عاصف ومدمّر يتوّجه الصمت الذي يغني عن الكلام. بدا لي كأنه يتنفّس من ثقب ضيق. في لحظات اقترابي منه كنت أرى صدره يعلو ويهبط، وأسمع صوت تأفّفه وخروج الهواء من منخريه بقوة وبوضوح. كان يسير مسرعاً مباعداً بين خطواته كأنه يقفز قفزاً.

كنت أسير وراءه على بعد خطوات قليلة. الله وحده العالم كم يمتلئ صدره بقيح الضغينة والكراهية لي، أنا تلميذه النجيب والقريب إلى نفسه قبل تلك اللحظة العاصفة.

ليتني أعرف سبباً مقنعاً لكل هذا الصدّ، ولكنه لا يفسح لي أي مجال للحديث أو العتاب أو حتى تفريغ الغضب بالضرب والصفع والركل أو حتى البصق. أليس هو وليّ نعمتي ومن حقه أن يفعل بي ما يشاء. كم بدا لي قاسياً بصمته في تلك اللحظة. وعندما حاولت أن أتحدّث معه لم يتكلم، بل أشاح بوجهه بعيداً عني. عند اقترابنا من باب بيتي، توقفت أمام الباب مباشرة ثم خطا خطوة قصيرة قليلاً لكي يفسح لي بالدخول إلى بيتي أو بيته الذي وهبه لي بمعنى أصح، أو حتى أتوارى عن نظراته الغاضبة التي تفيض كرهاً وحقداً. نعم، كانت تفيض بالكره والحسد والحقد. سأسمّي كل الأشياء بمسمياتها الصحيحة. لا مجال بعد الآن للتذاكي أو إصدار الأعذار أو التغابي عن الحقائق التي لا لبس فيها.

– سيكون بيننا حديث طويل في القريب العاجل...

ألقى بنظرته التي تغني عن الكلام على صفحة وجهي ثم مضى.

ولوهلة خاطفة، وقبل انصرافه، لمحت عينيه تلمعان كعيني ذئب تحت ضوء القمر. توقفت أمام باب البيت أتابع خطواته العجلى ببصري حتى تلاشى طيفه وغاب في الظلام. دخلت الى البيت وبدأت أنقل خطواتي الثقيلة إلى فناء داري بتؤدة، حينها تأكدت أن سيدي إسحاق الموصلي قد أصابه داء الحسد.

هل لاحظت ذلك في مجلس الخليفة؟

نعم. لم يفتنِ ذاك الوجوم وتلك النظرات الساخنة المستريبة، ولكني لم أحفل به. كنت في حال من التحليق عالياً، ترفّعت فيها عن كل الشرور والنقائص البشرية، وكانت هذه عادتي كلما داعبت أوتار عودي.

ثم إننا كنا في مجلس أنس وطرب؛ مجلس من المفترض أن تحلّق فيه الأرواح بعيداً عن أوحال النفوس المريضة والعليلة وترتقي إلى سماوات من الطهر والنقاء. كنت لا أزال أنظر إلى نفسي أنني ما زلت تلميذه وصنيعة تدريب طويل وسهر ومعاناة لكي أليق برجل مثله له ثقله في بلاط الخليفة. يبدو أنني كنت مخطئاً في كل استنتاجاتي وخابت كل توقعاتي. أليس الحسد هو ما حدا بأبناء الأنبياء إلى قتل بعضهم بعضاً؟ أليس الحسد هو من جعل إخوة يوسف يرمونه في غيابة الجبّ؟

ليس لي من الأمر شيء، فما يعتري النفوس هو بيد الله سبحانه وتعالى وليس ليد البشر حيلة فيه...

وربما زاد من الطين بلّة أن خليفة المسلمين قد أوصاه عليّ بنوع من التأنيب والتوبيخ والتهديد أيضاً، فماذا أريد أكثر من ذلك...؟

وحالما وصلت إلى سريري تهاويت فوقه ونمت من الإنهاك و لم أفق من نومي إلا قرابة ظهيرة اليوم التالي. كان أول ما خطر في بالي هو ليلة أمس. بدت لي كأنها حلم جميل ومبهج في ساعتها الأولى في ديوان هارون الرشيد. ولكنني بعد أن أفقت من نومي كنت أتأرجح بين شعور بنذر الشر والفرح. ما زالت نظرات سيدي إسحاق الموصلي الناريّة في ليلة أمس تحرقني بنارها . كانت ماثلة أمام عينيّ وتبلغ أعمق أعماقي...

و لم أكد أضع رجلي على الأرض حتى سمعت طرقاً على الباب، ثم جاءني صوته واضحاً جليّاً...

كان هو سيدي إسحاق. أقبلت نحوه ضاحكاً منفرج الأسارير، ولكنه غرس أصابعه في صدري ثم قال لي بلا مواربة:

– لا مكان لك هنا بعد اليوم...

طارت بقايا النوم والتعب العالق بجسدي المنهك. أصابني كلامه بالدهشة. بوغتّ بمدى وتيرة الغضب الذي لم يغسله تعاقب الساعات القليلة التي مضت. كان يحدّق إلى وجهي بعيون محمرّة ونصف مفتوحة ونظرات حادة حاسمة تفسر كل شيء بلا مواربة. ولكني صمدت. كنت متمسّكاً ببصيص من أمل، فنحن رغم كل شيء أبناء صنعة واحدة ما إن تلامس أصابعنا أوتار أعوادنا لتوليد النغمات والألحان وتصدر حناجرنا أبياتاً تشبه النشيج حتى نتناسى كل كره أو بغض.

ولكني كنت مخطئاً...

– لا مكان لك هنا بعد اليوم...

أعادها سيدي إسحاق بحزم، وبدا كأنه مستعد للذهاب بعيداً حتى تصلني معاني هذه الكلمات الباترة بوضوح.

– وما هو المطلوب مني يا سيدي.

أجابني بجفاء:

– لست بسيدك منذ ليلة البارحة. سأكون صريحاً وواضحاً معك. ألا تعلم أن الحسد داء من أقدم الأدواء وأكثرها تأثيراً في النفس وأعمقها جراحاً للقلب...

كدت أقول له نعم، ولكنه وضع سبابته قريباً من شفتيّ ثم قال وقد أمال رأسه حتى أسمعه بوضوح:

- هكذا هي الدنيا. فتنة تصيب القلوب والأجساد والعقول، والمنافسة في الصناعة نفسها تجلب العداوة والبغضاء.

تنفّس وأخرج هواءً حاراً محبوساً في صدره ثم قال:

- لا حيلة لي في ذلك، فالقلوب بين أصبعين من أصابع الواحد القهار، وما سمّيت القلوب بذلك إلا لشّدة تقلّبها في حال الحب والكره من دون أن يكون للمرء فيها حيلة...

سكت قليلاً ثم قال:

- لماذا مكرت بي؟

وقبل أن أجيب عاجلني:

- هل تريد أن تسقط منزلتي ومكاني في بلاط الخليفة؟ هل تريد أن تجعل من أكتافي سلّماً لترتقي لتصل إلى مبتغاك؟

- لا...

قلت كلمة "لا" بصدق وإخلاص.

كانت ممطوطة وطويلة فيها كثير من الاستنكار الممزوج بالخوف، ولكنه لم يبال بذلك بل استمر في إرسال حممه نحوي...

- والله لو كنت ولدي من صلبي لما رضيت بذاك... ولولا شعوري بالامتنان لسنوات رأيتك تكبر فيها أمام بصري شيئاً فشيئاً لأرقت دمك وذبحتك من الوريد إلى الوريد ولن يطرف لي جفن لذاك...

نكست رأسي...

كنت أدرك حينها أنه يعني كل كلمة نطق بها لسانه وحرصت على

ألا أنطق بأي حرف، فذاك يعتبر في هذه الساعة المجنونة مغامرة غير مأمونة العواقب. لذا فقد لذت بالصمت.

ماذا أقول؟

تنهّد سيدي إسحاق ثم قال بنبرة هادئة وإن لم تمسح من على وجهه تلك النظرات القاتلة التي تحمل نُذر الشرّ في طياتها...

– أمامك خياران، إما أن تغادر أرض العراق إلى أي مكان تشاء أو....

توقف قليلاً عن طرح خياره الآخر الذي بدا واضحاً وجليّاً، ولكن لا بد من طرحه.

– أو... تختار البقاء هنا ولكنك سوف تتحمّل تبعات قرارك هذا، ولك عليّ إيمان مغلظة وموثقة لأنزعنّ قلبك من صدرك وأرمي جثتك في أحد النهرين وأجعلك أثراً بعد عين. وأنت والله أعلم بصدق قولي ومقدرتي عليه والإيفاء بكل حرف فيه.

نفض عباءته...

ثم مضى...

١٥

تباطأت في تنفيذ ما طلبه مني إسحاق الموصلي، سيدي القديم الذي لن أجرؤ على القول بأنه سيدي بعد الآن، على الأقل في حضوره. كنت أراهن على الزمن والوقت وأقول لنفسي دوماً: إن ثورة الغضب والحسد تلك سرعان ما تمضي الى سبيلها إذا تمّ تجاهلها والتعامل معها برفق.

ولكني كنت مخطئاً...

لم أكن أعلم أن الكره والحقد والحسد تنمو في داخل الإنسان، تماماً كما ينمو البدن ويكبر!

أرسل لي سيدي إسحاق الموصلي رسائل واضحة ومهمة تؤكد لي مدى جديته، وتوضح مقدار احتقان صدر هذا الرجل نحوي. كانت أولى هذه الرسائل قد بدأت بإحراق الجزء الشرقي من بيتي. كان حريقاً ساذجاً ومفتعلاً، ولكنه يحمل دلالات خطيرة. كان يوجد هناك بيت المؤونة. فقد استيقظت يوماً من قيلولتي على صراخ زوجتي. كانت تصيح وتولول: حريق... حريق. كانت تشير إلى بيت المؤونة وهي ترتعد من الخوف من منظر النار الهائلة وهي تلتهم

كل ما هو في طريقها بشراهة وسرعة. وبصعوبة استطعت إخمادها بمساعدة بعض السابلة والجيران، قبل أن تلتهم بيتي بمن فيه. ومن هذه الرسائل الطافحة بالخسّة والمكر إيعازه إلى الحراس المكلفين بحراسة بيت الحكمة بعدم السماح لي بالدخول لقراءة الكتب والاستماع إلى مساجلات العلماء الأجلاّء الذين يكثرون في هذا المكان بالرغم من احتجاج صديقي ابن ماسويه، فكنت أعود إلى بيتي مقهوراً وعلى مضض أبتلع غيظي وغضبي . ثم كانت هناك معاملة بعض رجال القصر لي بخشونة وقسوة، فقد كانوا يمنعونني من الدخول إلى الخليفة أو إلى مجلس وليّ العهد المنتظر الأمين ولد الرشيد المرشّح بقوة للخلافة بدلاً من أخيه المأمون الذي طوته بلاد فارس تحت جناحها ولن تلبث أن تشكّله كيفما تشاء، كما كان يشاع همساً في بغداد كلها.

الأمين...

كيف فاتني هذا الوجه و لم أعد أذكره؟

هذا الشاب الطويل الضخم البدن الأقنى الأنف، الصغير العينين والذي يماثلني في السن. كانت قد جمعتني به أويقات هانئة في بيت الحكمة برفقة الكسائي أستاذه ومعلمه الذي يصبحه إلى دار الحكمة ليعبّ من العلوم والمعارف. كان ابن ماسويه هو من عرّفني إليه ذات يوم ثم توطدت علاقتنا معاً بسرعة مذهلة وعزوت ذلك إلى التقارب في الاهتمامات المشتركة بيني وبينه. بدا لي أشبه ما يكون بجدّه المهدي في حبّه للحياة وبعده الطوعي غير المتكلّف عن جفاء قلوب أصحاب الرياسة والقادة. التقيت به مرتين أو ثلاثاً وشاع بيننا ذاك الدفء

الإنساني القائم على الإحساس بالانتماء إلى مكان مهم لي وله، هو بيت الحكمة. تبادلنا في خلالها الحديث بعد أن أزالت الكتب وما تحتويه في بيت الحكمة الفوارق بيني وبينه وبين كل من سنحت له الفرصة ليكون موجوداً في هذا الصرح العظيم.

بعدما ضاقت بي السُّبل، أردت أن أطلب منه الحماية وأشتكي له إيغال سيدي القديم في خصومته لي ولكن عبثاً. أصابني الجبن والخور من أن أقوم بمثل هذه الخطوة.

أما ثالثة الأثافي فقد رفض الكثير من تجّار بغداد التعامل مع متطلباتي الأساسية والضرورية. رفضوا أن أبتاع منهم ما أحتاج إليه من غذاء وملبس وضروريات يومية لا يمكن الاستغناء عنها. وبسبب ذلك استعنت ببعض الإماء والعبيد للذهاب لتأمين حاجات بيتي الأساسية.

وجاءت الطامة الكبرى التي أجّجت الغضب في صدري...

كانت حروب إسحاق الموصلي تتّخذ في كل يوم لاحق جانباً واطياً وحقيراً جعلني أستغرب من أنه قد انحطّت به الحال إلى هذه الدرجة المخيفة...

كان بالفعل فاجراً في خصومته.

أوعز إلى رجال ملثمين كانوا يتحرّشون بزوجتي أثناء خروجها من المنزل لقضاء حوائجها أو زيارة جيرانها في الحي. كانت تأتي إلي باكية مرتعدة فرائصها، فأشعر بالقهر والضيم يعتمل في صدري، وعقلي ينوء بأفكار سوداء بصعوبة كنت أتخلّص منها بعد أن تمتص كل ذرة للاحتمال فيّ.

أما أنا، وبعد تلك الأحداث، وبعد أن أوصيت زوجتي بتقليل

الخروج من المنزل إلاّ للضرورة القصوى، قررت ألا أنجرف إلى مثل هذه الاستفزازت – على الأقل في الوقت الراهن – ففضّلت الانتظار.
كنت أعقد الآمال تلو الآمال، منتظراً أن يتم استدعائي من الخليفة نفسه. كنت أراهن على هذه الفكرة كثيراً، ولكن رافع بن الليث والي خراسان أفسد عليّ كل خططي، فقد بدأ هارون الرشيد بالاستعداد لغزوه في عقر داره وتأديبة جراء نزعته الانفصاليه ورغبته في الاستيلاء على خراسان وسمرقند، بعد أن امتنع عن إرسال الخراج إلى الخليفة كخطوة أولى للتحدي. ولأن الحدث كان سابقة تنذر بالخطر وأمر جلل لا بد من إيقافه قبل أن يستفحل أمره، فقد قرر الرشيد الذهاب بنفسه لتأديب رافع بن الليث بعد فشل كل الجهود لإصلاح ذات البين بينهما.

كل شيء كان يسير عكس ما كنت أريد...

وخسرت كلّ رهاناتي...

حتى حدثت تلك الزيارة...

كانت تلك الزيارة السرّية من صديقي ابن ماسويه. جاء إلى داري. كنت قد أخبرته بما يحدث لي من سيدي القديم في زيارة خاطفه لبيته. أردت أن أبقي كل ما يدور بيني وبين سيدي إسحاق سرّاً وكأنه أقدار لا أفعال مقصودة، إكراماً له واعترافاً بفضله عليّ، ولكنه كان يقتل كلّ الخيارات أمامي بكل رعونة وإصرار.

فوجئت به يأتي إلى بيتي ذات مساء. كان ملثماً ومتخفّياً ويلتحف بعباءة الليل والظلام. وما إن استقر في وسط الدار حتى بادرني بالقول بالحرف الواحد:

- اسمع يا صديقي. إني لك ناصح أمين. من المستحسن أن تغادر أرض العراق الآن، وعلى الفور، فالخليفة قد قرر الذهاب بنفسه للقضاء على الثورة في أقصى حدود الشرق، وولي عهده الأمين سيكون مشغولاً بتصريف شؤون البلاد والعباد في غياب والده. ولا أعتقد أنه ما زال يذكر تلك اللقاءات المحدودة التي حدثت بينكما في بيت الحكمة، فالملوك والأمراء في الغالب ينسون كل الوجوه بسهولة. إنهم لا يتذكرون إلاّ الوجوه التي تسبّب لهم المتاعب أو تلك التي تثير غرائزهم...

توقف قليلاً والتفت يمنة ويسرة، خفض صوته وقال:

- ربما استغل خصمك هذه الفرصة وأفقدك حياتك، ففي الغالب لن يسأل الناس عن موت مغنٍّ غير معروف ويأتي في ذيل أولويّات واهتمامات سيّد البلاد والناس أيضاً. ارحل يا صديقي. لا تتأنّ في القرارات الصائبة وتستعجل في القرارات الخاطئة...

وصمت ابن ماسويه عن الكلام ونظر الى أسفل قدميه واجماً...

كنت أعتقد أن لديه كلاماً أكثر من هذا، ولكنه كان متأثراً فماتت جُلّ الكلمات في سقف حلقه.

ضمّني إلى صدره ثم مضى لا يلوي على شيء...

انصرف الرجل وبقيت واقفاً في مكاني مشوّش الذهن مرتعب الفؤاد وقد نزّ مني عرق غزير، وعندما أمعنت الفكر في ما قاله لي هذا الرجل النقي القلب الصافي السريرة، وقلبّت الأمر على مختلف الوجوه، وجدت أنه على حق...

كانت دوائر النار تقترب مني وتضيّق في ما حولي...

و لم يكتفِ هذا الرجل بذلك، فبعد حوالى أسبوع زارني مرة أخرى وزاد من شعوري بالخطر أيضاً، وقال لي إن هناك أخباراً شبه مؤكدة قد وصلته بموت الخليفة هارون الرشيد في طوس أثناء حملته. قال لي:

– إن من الحكمة بمكان أن تستعجل في الخروج. لديّ إحساس ملحّ بأن الفوضى سوف تعمّ بغداد عمّا قريب، فالمأمون لن يلبث أن يطالب بالخلافة لأنه الأكبر والأحقّ بالولاية والأقوى كذلك، وهذا هو المهم، ولأنّ الرشيد قد سلّم له بلاد فارس وخراسان بكل ما فيها من أموال وجند. لن يلبث أن يأتي إلى بغداد عاصمة ملك آبائه وأجداده. ثق بأن ذلك سيحدث، وإذا حدثت كل هذه الأمور وأنت هنا فأمر قتلك سيكون سهلاً، وخصوصاً أنت تعرف أن سيدك إسحاق الموصلي من أشد أنصار المأمون. كل الناس تعرف ذاك...

توقف قليلاً كأنه يقيس مدى تأثير كلامه عليّ، قبل أن يستأنف:

– إذا قررت الذهاب إلى بلاد أفريقيا والقيروان تحديداً، فإنني سأمدّ لك يد العون. أدخل يده إلى جيبه ثم سلمني خطاب توصية منه إلى ابن عم له من الصقالبة يدعى "ليو"، قال لي إنه يشغل منصباً مهماً في جيش إبراهيم بن الأغلب حاكم القيروان. اسأل عنه وسلّمه هذه الرقعة، واذكر لديه اسمي الحقيقي "يوحنا" وليس يحيى، لكي يفهم مغزى هذا الخطاب الذي تحمله.

ابتسم في وجهي قليلاً ونهض من مكانه ثم احتضنني ومضى...

١٦

أعترف بأنني قد أصبحت بعد كل هذه الصدمات المتوالية شخصاً رقيقاً وهشّاً، ولكنني لم أشعر بمدى هشاشتي وضعفي في مثل هذه اللحظات. لحظات فقدان الأمن والشعور باقتراب المخاطر وانتفاء معاني الأشياء. أعرف أن كلمة قد ترفعني إلى أعلى مدى وأخرى قد تهبط بي إلى أسفل. بكاء طفل يؤذيني. صراخ امرأة يجعلي أمكث أياماً في حال صعبة. مشاهدة رجل رقيق الحال يسأل المارة يحطمني إلى ألف قطعة. قطّ صغير دُهس بحوافر الدواب يؤلمني ويصبح كهمّ ثقيل لأيام طوال. كانت زوجتي تبكي كلما رأتني أسير في الدار متفكّراً ومهموماً أو أماطل في مغادرة بغداد. كانت تلحّ عليّ بالخروج، وكنت في حقيقة الأمر لا أحب أن أكون تحت ضغوط من أي نوع. فمثلما كل شيء يسير في مجراه الطبيعي، أريد أيضاً أن تسير أيامي القليلة الباقية من دون أي منغصات أكثر ممّا رأيت، حتى يحين وقت مغادرتي المناسب. لكن لا أدري لماذا فجأة أصابني الإحباط. خفت من تفاقم غضب هذا الرجل، فقررت أن أرحل في أقرب وقت.

والغريب أنه في أثناء خوض غمار الاستعداد للرحيل، جاءني

إسحاق الموصلي إلى بيتي ذات مساء. كان بشوشاً على غير عادته معي منذ أن رآني منافساً له في صنعته. خبط على ركبتي ثم قال:

– أوصَلتك الأخبار؟

مسّد بأصابعه على لحيته المشذبة ثم قال:

– لقد مات الخليفة هارون الرشيد ودفن في طوس. لن يلبث المأمون أن يأتي ليتسلّم دفّة الخلافة. ستغرق بغداد بجنود فارس وخراسان الأشدّاء، وسُتحكم بطريقة أخرى تتناسب وتنسجم مع طبعها وطبع ناسها. من هنا سنقود الدنيا بأسرها وسنذهب إلى أبعد ممّا تتصّور. سيبنى عهد جديد من الآن فصاعداً. أستطيع أن أؤكد لك ذاك...

سكت لبرهة. شممت رائحة سخرية من كلامه. قال:

– هل تعتقد أن صديقك "الأمين" قادر على القيام بأعباء دولة تمتد من أفريقيا غرباً إلى بلاد السند شرقاً خير قيام؟ قل لي هل تعتقد بذلك؟ لم لا تجيب؟

كانت ابتسامته الماكرة ترتسم على وجهه قبل أن يقول:

– هل تعتقد أن "الأمين" بكل مجونه وعبثه قادر على السيطرة على دولة بمثل هذا الاتساع؟ لا تجب. سكوتك أفضل جواب بالنسبة إلي.

وأعلنت الحداد في داخلي على سيدي القديم المتبجّح المنكود...

نعم، وفي هذه اللحظة مات سيدي المغني الرقيق الشفّاف وأصبحت كأنني أستمع إلى قائد جيش متوحش ودموي يطرب لمرأى الدماء والجثث وليس إلى مغنّ ونديم للخلفاء.

لم أكن أتوّقع أن سيدي إسحاق يكتم كل هذه الكلمات وهذه الأحلام والأوهام في صدره.

استند إلى جذع نخلة في فناء داري قبل أن يصدر حكمه الذي عذّبني كثيراً قبل أن يتلفّظ به ويصبح واقعاً لا مفر منه. لقد اتضح اللؤم الفارسي فيه، وأصبح جليّاً وواضحاً لا يمكن نكرانه...

قال لي:

– كل شيء قد أصبح مهيّأً لرحيلك. ففي ظاهر بغداد، وفي قرية الدجيل تحديداً، هناك قافلة عظيمة هيّأتها لك وحدك، فيها ما تحتاج إليه من حُرّاس ومرافقين يأتمرون بأمرك وينفذون كل ما ترغب فيه...

سكت قليلاً ثم قال:

– وبالتأكيد سيوافيني أعضاء قافلتك بكل خطواتك، وستسلك الطريق المعتاد الذي تسلكه القوافل حتى تصل إلى "الموصل"، وهناك سيكون لك الخيار، فإما أن تواصل طريقك حتى بلاد الروم، أو تذهب إلى أفريقيا أو حتى بلاد الأندلس فالخيار لك...

إذن هو يرسم مسار منفاي...

هذا هو سيدي ومعلمي الذي نكبتني به طوارق الدهر. أي إحساس مأساوي كان يعتلج في صدري ويهزّ بدني؟ كنت أشبه ما أكون بوعل ملقى في صحراء لاهبة ونسور جارحة تحوم في ما حوله لتمزّقه قطعة وراء أخرى. كان كل شيء يبدو معدّاً إعداداً مسبقاً. وباختصار، كان الانهيار مكتملاً وفظيعاً. دفقات من قلب جريح هو قلبي لا تكذبني أبداً. وما إن غادرني إسحاق الموصلي حتى خرجت من البيت لا ألوي على شيء. كنت أريد أن أنفرد بنفسي وأهرب من دموع زوجتي الباكية، والتي زاد نحيبها بعد زيارة إسحاق الموصلي الأخيرة واستمعت متلصّصة إلى كلّ كلمة قالها لي. كنت أريد ان

أذرع طرقات بغداد ودروبها وشوارعها شارعاً شارعاً. أن أُلقي عليها نظرات الوداع الأخيرة. سرت بجوار بيوت متهالكة ودلفت إلى تلافيف الحارات الضيقة. في السوق الكبير الواقع جنوب بغداد كانت المساحات الكبيرة تضيق وتزدحم ليلاً ونهاراً. مواش وخيول. فلاحون يبيعون المحاصيل الزراعية. بائعو الأسلحة يختلسون النظر بوجلٍ إلى الجنود الذين يمرون جيئة وذهاباً في الطرقات المزدحمة. وصلتُ إلى الأسواق المسقوفة. غصت في الزحام فشممت رائحة العرق وشممت الأصباغ النفّاذة في زقاق الصبّاغين. لمحت باعة النحاس والفضة والذهب وعيونهم البراقة تراقب كل شاردة وواردة. كان خيط النهار يوشك على الغروب. أنفاسي مرتجفة. تختلط في ذهني شوارد الأفكار. الأفكار السوداء بلا شك. أمسك بيدي المرتجفتين ببقايا جلال أفل قبل أن يكتمل، ومجداً مات في رحم الغيب مبكراً قبل أن يولد، وقبرت حلماً أصبح كالسراب.

في طريق عودتي إلى البيت، حاولت أن أرتّب أفكاري وأقلّل من حدّة قلقي. وفي البيت كانت جذوة الحديث مع زوجتي تتلاشى وتتوه الكلمات في بحر من الترقّب والخوف والبكاء والدموع. أخبرت زوجتي بأمر الرحيل الذي أصبح الآن مؤكداً ولا يحتمل التأجيل، وطلبت منها أن تعدّ كل شيء على وجه السرعة. تلقّت زوجتي قراري بفرح طاغ. لم يبق الكثير من الوقت للتردّد. سنخرج من بغداد قبل أن يحدث ما لا تحمد عقباه. أطمأننت على ابني الرضيع عبدالله. ما إن يقع بصره عليّ حتى يمدّ كلتا يديه لكي يلمس وجهي ويبتسم ويصدر أصواتاً قدرت أنها أصوات للفرح. وجهه الجميل مكسو بالبراءة

والدهشة. كنت أضع أنفي أسفل رقبته فيكركر بالضحك. كنت أشمّ رائحة طفولته المخلوطة برائحة لبن أمه، فتهبّ علي كهبة نسيم عليل. وعقيب الغروب زارني جاري "ثابت". كان كاتباً مغموراً في ديوان الخليفة. رأيت الدمع يترقرق في عينيه عندما سمع بأمر رحيلي الوشيك من بغداد. كل هذه الصور تعذبني وتلهب صدري. كنت أشعر بحزن قاتم ويأس مطبق؛ ذلك اليأس الذي يأتي في أعقاب الإحساس بالظلم والإجحاف. لم يعد هناك وقت لسخف الكلام أو زيف المشاعر...

ماذا أقول لهذا الجار الطيب...

ودّعته وأخبرته أن يتوخى الحذر من زيارتي حتى لا يؤذى. قلت له مبتسماً: سيكون لقاؤنا قريباً بإذن المولى. لم يجبني إلا بمزيد من النهنهات والبكاء الصامت. طبطبت على ظهره وكنت حينها أغالب دموعي، ولكني تماسكت. أمسك بيدي ثم ضمّني إلى صدره لبرهة وجيزة، ثم انفلت مسرعاً عائداً إلى داره لا يلوي على شيء.

١٧

قضيت مسهداً ليلي الذي من المفترض أن يكون الأخير أو ما قبل الأخير.

كنت أتململ في فراشي كالذبيح. ودهمتني الكوابيس والأفكار السوداء. رأيت فوقي دخاناً أبيض كثيفاً ذا رائحة لا تطاق يخنق أنفاسي. كنت أتحسّس مواطن الآلام في جسدي، فوجدتها ترتكز كلها في صدري، في عقلي، في جسدي، في كل حواسي. كل شيء أصبح متوتراً فيّ وفي ما حولي. زوجتي وعائلتي الصغيرة، خدمي وعبيدي كلهم كانوا ينظرون إلي ويقولون بأعينهم: متى الرحيل لكي ننجو ونرتاح من هذا العذاب؟

كنت محبوساً داخل شرنقة تضيق خيوطها الرفيعة اللزجة حول عنقي بإصرار عجيب...

أيام سوداء بطيئة. ثقيلة. يشوبها صمت مستفزّ يجعل من الحياة عدماً يشبه الغبار...

كل شيء أصبح يحتمل التأويل إلا مسألة سفري إلى منفاي فلم تعد تحتمل أي تسويف أو تأجيل.

كنت قد أزمعت في الصباح الباكر الذهاب إلى سوق الماشية لكي أشتري من هناك أربعة جمال ورواحل لكي تحملني وأسرتي وخادمي وخادمتي في طريق المنفى.

مرّ الليل بطيئاً متمهّلاً شعرت فيه بكل لحظة وأحسست بكل حركة وكل همسة أو دبيب أقدام تسير في أرجاء البيت...

واقترب الفجر. بدا لي كئيباً وضوؤه الشحيح يقتل الزمن ببطء...

قبيل الفجر نهضت من نومي المتقطّع. سمعت صوت الأذان. كان صوتاً رخيماً وكثيفاً. حتى الظلام الذي يسبق الساعة الأخيرة من فجر بغداد كان آسراً. له طعم خاص ربما لم يفتِ الشعراءَ سرّه وبهاؤه.

هذه مدينة لا تعرف الانكفاء على نفسها. تمنحك ما تريد وتأخذ أيضاً منك ما تريد وقتما تريد هي لا أنت. إنني هنا خاسر في كل الأحوال. وحينما أدرت هذه الكلمات ولاكها عقلي، شعرت بنفسي لأول مرة خفيفاً أكاد أقفز قفزاً في حركتي وممشاي وفي تسلسل أفكاري...

نهضت من فوق فراشي ينتابني ذلك الإحساس الغامر بانقطاع الرجاء تماماً مثلما تشعر بأن الرغبات الدفينة الملحاحة قد ازدادت غوصاً في مكامن النفس البعيدة فأصبح لا أمل من انبعاثها من جديد بعد فقدان الأمل والرجاء...

نعم، هو المنفى ولا شك...

سأودّع عمّا قريب مدينة شكّلت كل عالمي في ظلام رحمها وعلى ظاهر أرضها. مدينة بيني وبينها عشق دفين. مدينة أمعنت في أحلامي حباً جارفاً وتكثّفت ظلالها برداً وسلاماً في سويداء قلبي. ولكنها الآن أضحت لحظة من لحظات اليأس الكبرى والأيام التي ستصبح داكنة

ومُرّة فيما لو أصررت على البقاء فيها.

قفزت قفزاً من فوق فراشي ثم خرجت من بوابة البيت ماشياً بتمهّل، محاولاً أن أمتصّ كل تعاساتي والتخفيف قدر الإمكان من خيبات أملي. أنا في كل الحالات رجل وحيد وأشعر باغتراب في داخلي منذ أن انتزعت من كنف أمي وأبي منذ زمن بعيد. لا أريد أن أعود مثخناً بالهزائم القديمة. هزائم العبودية ثم الخوف من الموت المتربّص بي في كل زاوية وفي كل خطوة. أخذت كفايتي من الألم والعذاب والبؤس والاغتراب...

إلى أين سأذهب في منفاي؟

أإلى سفوح جبال طوروس حيث تكوّنت الفرحة الأولى وسالت الدمعة الأولى، أم الموصل أم الري أم الشام أم... أم... إلى...؟

ولمعت في ذهني تلك الفكرة. تلك الأرض، وتلك الأمة التي خلقت من العدم شيئاً مذكوراً، هناك في أرض الأندلس. أرض أحفاد بني أمية الجديدة التي فتحها رجل واحد اسمه عبد الرحمن بن معاوية. الرجل الذي أطلق عليه عدوّه الخليفة المنصور يوماً ما، وأمام وزرائه وقادته، لقب "صقر قريش". تلك الأرض التي قال عنها صديقي ابن ماسويه قيّم بيت الحكمة:

"لقد قرأت في الكتب وسمعت بأذنيّ أنها من ذلك النوع من الأمكنة التي تملأ القلب بالدفء والفرح والسعادة. فردوس حقيقي وجد خلف بحر الظلمات. أرض معطاء تعطي من يعطيها، وفي الوقت نفسه لا تسلب من لا يريد أن يمنحها شيئاً ولو كان ضئيلاً".

لم يكتف بذلك بل أردف قائلاً لي:

- هناك بإمكانك أن تصنع زمنك الخاص وتشكّله كما تريد...
هناك بإمكان المرء أن يغرق في بحر الضلال أو اليقين كيفما شاء...

يا إله الكون ماذا حدث لي...

لماذا أصبح كل شيء محرّضاً على الهجر والنفي؟

ومع أفكاري المتصارعة سرت نحو السوق. كانت الطرقات خالية في ذلك الوقت. شعرت بشعور مبهم بخطر محدق، ولكنني تجاهلته ومضيت قُدماً غير آبهٍ في طريقي. مع بزوغ الشمس كنت أتوسّط السوق الصاخب. ورغم أننا في بوادر الربيع، كانت الشمس الزاحفة ببطء في ذلك اليوم القائظ تتسلّط على البشر بلهيبها وحرارتها فلا يستقر الحق أو يثبت الشك. رؤوس السابلة مكشوفة والحلوق جافة من الظمأ، والعرق يغطي الأبدان. لم أطق المكوث في جهنم هذه. لم أطق الأصوات ولا الروائح، ولا المساومات الحامية الوطيس. ومن بين أصوات الثغاء والرغاء والنهيق اشتريت أربعة جمال وثلاث بغلات وما يلزم من ضروريات لكي تعينني في رحلة المنفى.

مع عودتي إلى البيت وطدت العزم على الرحيل إلى بلاد الأندلس. أردت من هذا المكان البعيد أن أقطع كل صلتي بهذا المكان الذي لفظني وأصبح فجأة عدائياً وغير مأمون الجانب...

المرء لا يستطيع أن يخفي مخاوفه ولا حقيقة نفسه. لم أرد أن أبدو خائفاً على الدوام، ولا أحبّذ أن تراني عائلتي الصغيرة في حالة همٍّ متصل ووجل دائم وخوف دائم. إذا كان لا بد من أن نرحل، فلنرحل وننهِ الأمر وينتهي كل شيء وينقطع كل سبب للمعاناة والعذاب.

وعدت سريعاً إلى البيت...

١٨

ولكن كانت للأقدار كلمة أخرى!

قبيل رحيلي كانت هناك أحداث جسيمة حدثت وأجّلت رحيلي القسري وعطّلته سنوات بلغت إحدى عشرة سنة!

كنت قد وطّنت نفسي على الرحيل بعد أن بدأت الحياة في بغداد تضيق في عيني وتدير وجهها القبيح والمنذر بالدماء نحوي. تكالب عليّ الأعداء وتفرّق بعض "الأصدقاء" من حولي كما يتفرّقون من أمام المرء المصاب بالجذام. كان كل شيء محرّضاً على الرحيل ومن دون تأجيل...

متى حدث ذلك؟

إنني أذكر تلك الليلة جيداً...

حدث ذلك قرابة منتصف الليل. كنت قد آويت إلى فراشي مبكراً استعداداً للسفر عن أرض السواد بصفة نهائية. سمعت طرقاً قوّياً على الباب، فنهضت من فراشي فزعاً وأنا أسأل الله ألا يكون ببابي شرّ يترصّدني في اللحظة الأخيرة، فلم يبق لدي أي شيء هنا، لا نصير ولا صديق. وعندما أطللت من فوق البيت إلى الأسفل لمحت جنوداً

مسلحين بأيديهم مشاعل مضيئة، فأحسست بالخوف الشديد.

ماذا يريد مني أولئك الجنود؟ هل هي مكيدة من المكائد التي تحاك بليل؟ أم صدفة تصنع قدراً شديد المرارة؟ أم ماذا؟

ومع ذلك فإنه لم يعد لدي ما أخسره. سأتحمّل كل شيء شرط ألا تمسّ عائلتي بسوء. وبهذا الشعور المفاجئ باللامبالاة قررت أن أواجه كل شيء بوجه هادئ لا يحمل أي تعبير محدد، وبقلب بارد وليكن ما يكون...

فتحت الباب وأنا أدعو الله ألا يعطّل رحيلي أمر يسبّب الألم لي ولأسرتي التي لا ذنب لها، فكل شيء كان جاهزاً، أمتعتي المقفلة وكتبي التي وضعتها في صندوق خشبي وحُليّ زوجتي، وكذلك تبديل الدنانير والدراهم إلى مصاغات ذهبية وفضية استبدلتها عند تاجر يهودي في سوق الحُليّ، وحتى نفسي كانت قد توطّنت على الرحيل ولا شيء سواه...

ماذا يريدون مني؟

ما إن فتحت الباب حتى وجدت نفسي محاطاً بأولئك الجنود. كان بعضهم راكباً وبعضهم راجلاً وبأيديهم الرماح والسيوف والمشاعل. كان عددهم يقارب عشرين رجلاً. وقفت هادئاً متلبّساً سكينة هبطت عليّ فجأة وقلت لهم:

– ماذا تريدون؟

أجابني رجل ذو شارب كثّ وعينين واسعتين كانتا تلمعان بشكل غريب تحت ضوء المشاعل:

– لا تخف يا سيدي، نحن مجرد رُسُل لك من قبل خليفة المسلمين؛

الخليفة الأمين بن هارون الرشيد...

شعرت بالحيرة وسألت نفسي:

"منذ متى أصبح الأمين خليفة للمسلمين؟ وماذا عن أخيه الأكبر المأمون الذي يحكم بلاد فارس وخراسان".

هل ستسقط تراتبية الخلافة وتؤول إلى الابن الأصغر قبل الأكبر؟

ونفضت هذه الأفكار من رأسي كما يُنفض ثوب عتيق وبال.

ماذا يهمني من كل ذلك؟

لا شيء. فلم يعد يعنيني ذاك بحال من الأحوال.

لكني حتى هذه اللحظة لم أكن أعلم أن الأمور كانت تدار خلف الحُجُب بكثير من السرعة والخفّة والدهاء أيضاً!

لكنني تغاضيت عن كل تلك التساؤلات ووجهت سؤالي التالي لهم:

– وماذا يريد مني؟ إنني على وشك الرحيل و...

كان في جوابي نوع من النزق والوقاحة لشخص يُفترض أن أكنّ له كل فروض الولاء والسمع والطاعة ما دمت واقفاً فوق أرض يمتلكها وأمّة يحكمها.

كانت دهشتي تتصاعد عندما خاطبني ذلك الرجل الذي بدا لي قائداً لثلّة الجند هذه بكلام بدا لي سهلاً وليّناً:

– يا سيدي نحن مأمورون فقط. الخليفة الأمين يريدك حالاً في قصره.

لا حيلة لي في ذلك.

ومن أنا لكي أرفض لقاء خليفة المسلمين؟

طلبت منهم أن أخبر زوجتي بذهابي معهم حتى لا تقلق. وحالما أخبرتها صعقت وبكت وولولت وخمشت بأظفارها وجهها وتشبّثت بثيابي راجية مني عدم الاستجابة لطلبهم والبقاء في البيت مهما كلفني ذاك من أمر. حاولت أن أطمئنها ولكن جهودي باءت بالفشل.

كان الطرق على الباب يهزّ أركان البيت، فلم أجد بُداً للخروج معهم قبل أن يفسّر عدم تجاوبي معهم بنحو سيّئ.

قادني أولئك الجند بالفعل إلى قصر الخلافة. وقد كنت أحدس بأن كل هذا ما هو إلا مكيدة من مكائد إسحاق الموصلي؛ مكيدة مدبّرة لقتلي وإخفائي عن الوجود.

وتبدّدت كل مخاوفي عندما أدخلوني إلى الأمين.

كان جالساً على سرير ملكه، تماماً مكان أبيه الراحل. لم يكن بمفرده. لمحت رجلاً بدا مألوفاً لدي. ما إن وقع بصري عليه حتى شعرت بالراحة والاطمئنان. كان ذاك الرجل هو صديقي ابن ماسويه قيّم بيت الحكمة. وقبل أن أنطق بكلمة واحدة كان الخليفة الجديد الذي سبق أن التقيت به في بيت الحكمة مرّات تعدّ على أصابع اليد الواحدة يزيل كل مخاوفي بكلمات كانت كبلسم شاف من كل متاعبي ومصاعبي.

– كيف لرجل مثلك وواحد من خواص أمير المؤمنين الراحل واللاحق أن يتعرّض لكل هذه المصاعب من دون أن يخبرني؟

كان صوتاً عميقاً فيه نبرة فخمة تشدّ المسامع إليها رغماً عنها...

لم أتكلّم ولكنه استمر في الكلام:

– هذا الرجل – وأشار بسبابته الى ابن ماسويه – قد أخبرني بكل ما

حدث لك. لكن لا تثريب عليك يا أبا الحسن، فأنت منذ اليوم رجل من رجال الخليفة.

وران صمت ثقيل.

رجل من رجال الخليفة!!

حتى هذه اللحظة، وبعد مرور أكثر من خمسة وثلاثين عاماً وأنا أخطّ هذه المخطوطة، لا أستطيع أن أصف ذاك الشعور الذي غمرني. كان شعوراً أشبه ما يكون بإحساس من نجا وتخلّص من براثن وحش مفترس، أو كمن كتبت له الحياة بعد أن أبل من مرض عُضال.

لاحقاً، انتابتني حالة من التوتر المشوب بالخوف ولكنها تلاشت بعدما انفرد بي صديقي ابن ماسويه وقال لي ضاحكاً:

– نعم يا صديقي. لقد أخبرت الأمين بما يحدث لك من إسحاق الموصلي، وكان هذا في الساعات القليلة اللاحقة لتنصيبه خليفة بدلاً من والده الراحل. ولم يخب ظني فيه، فتلك الساعات التي كان يقضيها برفقتنا في بيت الحكمة لم تنسه أصدقاءه بحال من الأحوال. كم كنت مخطئاً عندما اعتقدت أنه لن يذكر شيئاً من تللك اللقاءات السريعة والقليلة.

ربت ابن ماسويه كتفي مشجّعاً، كأنه يريد أن يطرد مخاوفي، ثم ذهب.

أما أنا فبقيت ظنوني وشكوكي تؤرقني وتقضّ مضجعي.

١٩

لن أتوسّع في الحديث عن السنوات التي قضيتها تحت كنف الأمين وحمايته...

كانت – وا أسفاه – في غالبها سنوات سوداء قاحلة مترعة بالدسائس والمكر والغدر والخيانة!

كانت مُعضلة الأمين الخليفة الشاب أنه يجيد تكوين الأعداء وفي المقابل لا يعرف كيف يكسب الأصدقاء، وخصوصاً من يملكون ويمسكون كل الحبال المهمة في أيديهم، أو حتى يحافظ على البقيّة الباقية منهم.

كانت تلك مشكلة كبرى بالفعل ولا تليق على الإطلاق بالملوك والحكام الأذكياء المتمرسين بمعرفة الرجال وأصنافهم وبإنزالهم في المكانة التي يستحقونها. فعدوّ الأمس قد يصبح صديق اليوم وصديق اليوم قد يصبح العدو اللدود في لمح البصر.

"وتلك الأيام نداولها بين الناس".

كان الأمين رجل دنيا وليس رجل دولة. نعم، هكذا يمكن القول باختصار.

أراد أن يعيش عاشقاً للحياة بوجهها البريء وغير البريء، ويمارس سياسة الحكم التي تطفح دهاليزها بالخسّة والغدر ولا تقبل أنصاف الحلول أو التهاون في الوقت ذاته!

ولكن الحظ لم يحالفه ولن يحالفه...

امتلأ قصره فجأة بالجواري المجلوبات حديثاً من كل البلاد التي تقع تحت حكمه. واستكثر من الندماء والمغنين والشعراء، ورجال لو رأيتهم عرضاً في أي مكان لما أقمت لهم وزناً أو نظرت مجرد نظرة عابرة في وجوههم. حتى منتهزو الفرص اكتظّ بهم قصر "الوضاح" وكانت تدور بينهم حروب تتّسم بالوضاعة والدناءة!

ولم يكتف بذلك، فقد أثار حفيظة الغلاة والمتشددين في الدين الذين لا يخلو منهم زمان أو مكان عندما أطلق من سجن والده الرشيد رجالاً كانوا محبوسين، يسمّيهم العامة المارقين من الدين والملاحدة والكفَرَة وغير ذلك من الأوصاف المجانية التي تُلقى على عواهنها من دون تثبّت أو يقين. كان على رأس هؤلاء الشاعر الحسن بن هانئ الشهير بأبي نواس، والكل يعرف من هو أبو نواس. الشاعر الذي كان يتغنّى بالخمر وبالفتيان المُرْدْ أصبح في لحظة شاعر البلاط ومرافق الخليفة ونديمه الدائم، ما أوحى إلى العامة بأن الخليفة الجديد لا يحفل بمشاعر "المؤمنين" ولا يقيم لها وزناً، وكيف به وقد التفّ حوله رجال مشكوك في عقيدتهم وإيمانهم؛ رجال زجّ بهم الخليفة الراحل هارون الرشيد في غياهب السجن؟

ولقد لعب الكارهون والمترصدون بهذا الأمر واستغلوه أسوأ استغلال وأجّجوا به عواطف العامة ومشاعرهم. وبدأت نواة أفكار

تتّسم بالخطورة تنشأ في بغداد بأن الخليفة الحقيقي يوجد على الجانب الشرقي من حدود المملكة وكانوا يقصدون بذلك الرجل القوي: المأمون.

كانت أيام الخليفة الجديد تسير داخل القصر فقط بسلاسة وهناء، حياة عُزلت عن بقيّة الناس، بينما كان أخوه المأمون على الحدود الشرقية للبلاد يعدّ العدة لاستخلاص الخلافة منه بكل ما أوتي من وسائل.

وجاءت تلك اللحظة المزلزلة التي كنت أتمنى ألا أراها...

بدا كأن القدر قد عقد صلحاً مرّاً ومستديماً معي، فتوالت عليّ أعطياته كالمطر!

كانت لحظة مجنونة بالفعل...

كانت تلك اللحظة تتعلّق بسيدي القديم ومعلمي الأول الذي زارني منذ أيام معدودة في بيتي يطلب مني الرحيل من دون إبطاء...

وعلى عجل بدأ الخليفة الجديد يرهب أعداءه القدماء وينكّل بمن كانوا يدينون بالولاء لأخيه المأمون. كان يضيّق عليهم السُبل حتى يقتلوا أو يزجّ بهم في غياهب السجن أو يجري ترحيلهم كرهاً من بغداد.

وكان على رأس هؤلاء: إسحاق الموصلي...

كان قد استُدعي إلى مجلس الخليفة، فمكث في الخارج وقتاً طويلاً قبل أن يُسمح له بالدخول.

ها هو يقف أمامي يكسوه الذل ويسكنه الخوف وإن بدا هادئاً مطمئناً رابط الجأش.

ولن أنسى تلك النظرة التي رمقني بها أثناء دخوله إلى مجلس الأمين. كانت نظرة تغني عن آلاف الكلمات.

ولن أنسى أيضاً ذاك الرعب المرتسم على وجهه. كان المحظور قد وقع، وسقط في تلك الحفرة التي طالما يحاول المرء أن يتحاشى الوقوع فيها.

وكبداية غير مستغربة في دولة يمسك بها سيّد جديد فيظهر رجال كانوا بالأمس يعيشون في الظل وعلى هامش الأيام ليتسنّموا مواقعهم الجديدة وأول ما يبدأون به هو: تصفية الخصوم القدماء بكل تأكيد!

ومن المؤكد أن لسيدي القديم أعداءً كثراً قرروا أن ينتهزوا الفرصة ويهتبلوها قبل أن تفلت من أيديهم...

لقد وشى به الواشون والمتربصون به في ديوان الخليفة، وأذاعوا بطرائق مباشرة وأخرى مواربة أنه من المؤيدين والمناصرين لأخيه المأمون، وأن وجوده في بغداد جاسوساً للأخ المنافس المتمترس في جبال فارس ربما مثّل هذا خطراً على الخلافة الوليدة.

وكعادة الأمين، فقد كان سريع الغضب، ميّالاً إلى عدم التحقّق من الأمور، ويريد أن يعالجها بشكل سريع ومدمّر أيضاً؛ فقد استدعاه الأمين ذات مجلس، وحالما دخل إسحاق الموصلي إلى هذا المجلس من مجالس الأنس للخليفة الجديد التي كثرت وزادت عن الحد في الآونة الأخيرة، وقف صامتاً لا يتحرك. وما إن وقع بصر "الأمين" عليه حتى ثار في وجهه وقال له موبّخاً:

– ما الذي يمنعني من استدعاء السيف وحامله وتركيعك على النطع لقتلك الآن؟

بدا إسحاق الموصلي كأنه لم يفاجأ بهذه اللهجة القاسية، بل بدا كأنه كان يتوقّعها، لذلك بدا هادئاً عاقداً يديه خلف ظهره، بينما استمرّ الأمين في الكلام الغاضب وقد استفزّه هدوء خصمه:

– لا أريد أن أراك بعد اليوم في بغداد. عد إلى بلدك الموصل أو اذهب إلى صديقك القديم في خراسان...

كان يعرّض بصداقته لأخيه المأمون.

وطال تأنيب الخليفة للموصلي في ذاك المجلس حتى شعرت بأنه لن ينتهي، ولكنه انتهى عندما ختم الخليفة كلامه قائلاً تلك العبارة الأخيرة ساخراً بينما كان العرق قد بدأ يتفصّد من جبين إسحاق، ومع ذلك لم يدعه الخليفة ينعم بلحظة راحة حتى عاجله بكلمات بدت في ذاك الجو المشحون أشبه بقصف الرعد:

– اغرب عن وجهي الساعة، ولئن رأيتك في مملكتي بعد ثلاثة أيام أرقت دمك واستبحت حياتك وسلبت مالك وكل ما تملك.

كان موقفاً عصيباً بالفعل.

فقد شعرت أنا بالحرج والخوف معاً. كنت لا أرغب في أن أرى معلمي القديم في هذه الحال. ولكم تمنيت أن لقاءه بالأمين تمّ و لم أكن موجوداً في ذاك المجلس المشؤوم... ولن أنسى تلك النظرة النارية الثانية التي حدجني بها إسحاق الموصلي عندما انحنى أمام الخليفة وقال بصوت خفيض:

– السمع والطاعة، سيكون لك ذاك الساعة يا مولاي.

ثم انسحب بهدوء قاتل.

لم تقع عيني على سيدي وأستاذي القديم بعد ذاك اليوم المشهود.

ولقد شعرت نحوه بالأسى والأسف. فرغم كل شيء، كنت أكنّ له احتراماً واعترافاً بالجميل وإكراماً لتلك السنوات الهانئة التي قضيتها تحت كنفه.

وترصّدت أخباره بعد ذلك اللقاء العاصف، فقيل إنه قد عاد إلى الموصل، وقيل إن المأمون قد استدعاه فلبّى الدعوة وأصبح من رجاله الخُلّص...

كانت السنون تترى وتمرّ سريعاً.

كانت خمس سنوات على وجه التحديد.

كنت قد نسيت خلالها معلمي إسحاق الموصلي وما حدث له في خضم الأحداث المتلاحقة التي جرت، وكانت من السرعة إلى درجة أنها أذهلت كل الناس. ولاحت في الأفق مصاعب جمّة كانت على وشك الحدوث.

استمر الأمين في حياة باذخة ناعمة لاهية حتى جاءت الساعة التي كان الكلّ في بغداد يترقّبها ويتوقّع حدوثها.

كانت جيوش المأمون الغاضبة تحيط ببغداد من الجهات الأربع، وعلى رأس كل كتيبة رجل شديد البأس اختارهم المأمون بعناية. كانوا رجالاً موتورين محتقني الصدور، وفيهم أيضاً رجال كانوا بالأمس يدينون بالولاء والطاعة للخليفة الأمين ولكنهم في آخر لحظة عندما قارنوا بين المكاسب والخسائر، ووازنوا بين الأقوى والأضعف، قرروا الانسحاب والانفضاض من حول الخليفة اللاهي إلى رجل الدولة الأقوى والأكثر حنكة وتدبيراً للأمور.

وفي غمضة عين كانت بغداد واقعة تحت الحصار.

لقد تحققت تنبّؤات سيدي القديم إسحاق وحدث ما كان يتوقّعه أو يتمناه. وأدرك تمام الإدراك أن هذا ليس بمستغرب عليه، فهو دارس جيد للتاريخ إلى جانب كونه من ندماء الخليفة السابق ومغنيه الأول بل والمفضّل لديه.

وفي لحظات عصيبة وجد الخليفة الأمين نفسه رجلاً وحيداً لا يملك مالاً، فقد أنفق ما في الخزينة على الترف واللهو. وكان أيضاً لا يملك جيشاً يعتدّ به ولا رجالاً يستطيعون أن يسيّروا أمور مملكته التي بدت آيلة إلى السقوط في أي لحظة...

وما زاد الطين بلة كثرة اللصوص والعيارين الذين دهموا البيوت والحوانيت فقتلوا ونهبوا وشرّدوا الرجال والنساء وضجّ الناس من هول هذه المصائب. وبدأ البغداديون يصرّحون للمرة الأولى وبشكل علني ومن دون تردّد، حقناً للدماء، بأن يتنازل الخليفة الأمين لأخيه وجيوشه التي تحيط بالمدينة وفرضت عليها الحصار، وهي الآن على أهبة الاستعداد لاقتحامها في أي وقت.

٢٠

لم يأتِ المأمون مع الحملة الضخمة التي جاءت للاستيلاء على عاصمة الخلافة بغداد، فقد فضّل مستشاروه وزينوا له الانتظار ريثما يتم الاستحواذ الكامل على بغداد وما حولها وتأمينها ومن ثم يأتي على مهل ليقطف الثمرة التي أينعت وحان قطافها لكي يلتهمها هنيئاً مريئاً!

جاء الجيش الكبير العدة والعدد وأحاط ببغداد حتى خنق أنفاسها ببطء وتفنّن.

كانت أيام الحصار تزداد قسوة وضراوة.

وهذا ما كانوا يعملون من أجله. أن تموت المدينة ببطء وعلى مهل، ثم يثبون بعد ذلك على جسدها المنهك فينهشونه قطعة وراء قطعة.

إنه أمر قد دبّر بليل لا شك.

وبسبب الحصار الضاغط، بدأت المؤن داخل المدينة المحاصرة تقلّ وتشحّ، بل وتختفي الأشياء الأساسية والضرورية للبقاء. وانتشر الفقر واستولى الخوف والرعب على الناس، وارتفعت أسعار السلع أضعافاً مضاعفة واستغنى الناس عن تداول النقود التي شحّت واختفت فجأة، لتكون مقايضة البضائع هي السبيل الوحيد للحصول على

السلع والمؤن الضرورية.

ولم يكن ذلك كافياً، فقد ازداد نشاط السرّاق والعيارين والسّفلة. نهبت الحوانيت والبيوت وجرت حوادث مؤلمة قاسية لاختطاف النساء والأطفال لأغراض دنيئة كاغتصاب وفدية وما شابه. وأصبح كل فرد في بغداد جلّ همّه أن يحمي نفسه وعائلته. وبسبب هذا التصدّع وفقدان الأمن ازدادت الجرائم وشاع القتل والنهب والسلب.

وكان الشيء الأكثر غرابة وأثار حنق الناس هو أنه كلما ازداد السوء سوءاً ببغداد وسكانها فقد كان "الأمين" يرفع من وتيرة ترفه وبذخه وإنفاقه وعبثه ومجونه. كان يعاقب بشكل قاس كل من تسوّل له نفسه لفت أنظاره إلى مدى الأخطار التي تحيط بمملكته الآيلة للسقوط.

فقد أودع في السجون رجاله الناصحين له بصدق، وقرّب منه المطبلين والحامدين الشاكرين لفضله...

وصم أذنيه عن أوجاع الناس ومطالبهم التي لا تحتمل التسويف والتأجيل.

بدا الأمين في أعين الناس رجلاً أنانياً مستهتراً، بل وساخراً من مصائبهم وآلامهم. وبسبب ذلك كثرت الانشقاقات في جيشه المنهك والمتهالك، الذي لم يتسلّم فيه الجنود أجورهم منذ زمن طويل.

لم يكن غريباً أن تُحاصر بغداد ويُضيّق على مداخلها ومخارجها، وخصوصاً من جهتي الشرق والجنوب، وهذه كانت أهم منافذ المدينة. ثم جاءت القشّة التي قصمت ظهر البعير. ففي الأيام اللاحقة نُصبت المنجانيق والعرادات التي كانت تصبّ حممها على رؤوس الناس، فهدّمت البيوت والحوانيت، ومات كثير من الخلق، واشتعلت النيران

في أماكن كثيرة في بغداد المنهوكة والموعودة بالدم والنار.

ثم حانت اللحظة التي كان الجميع في بغداد يتوقّعها بل ويترقّبها ويتمنّاها...

فقد أعلن الخليفة استسلامه وتنازله عن الخلافة لأخيه.

ولا أعرف حتى هذه اللحظة من الذي أشار على الخليفة بالاستسلام، فلم يبق معه أحد. وكأنما الكل كان ينتظر هذه اللحظة، فقد ألقى الجنود الغاضبون سلاحهم واندسّوا بين عامة الناس مدافعين عن أبنائهم وأسرهم وأنفسهم، والبعض الآخر انضم إلى الجيش الذي يحاصر المدينة ويفترس أجزاءها جزءاً وراء الآخر.

أرسل الخليفة المغلوب على أمره إشارات الاستسلام وانتقل من قصر الحكم، قصر الوضاح، الى قصر الخلد، قصر أبي جعفر المنصور، واتصل بأحد قادة الجيش القادم من الشرق، وكان المسؤول عنه قائداً محنكاً وداهية يدعى "هرثمة بن أعين"، فمنح الخليفة الأمان، بل واستقبل الخليفة في شرقي بغداد وركب معه قارباً لكي يعبروا إلى الضفة الأخرى لاستكمال إجراءات الاستسلام.

لكن حدث ما لم يكن في الحسبان. فقد غضب القائد الآخر للجيش، وكان رجلاً فظّاً غليظ القلب ويدعى" طاهر بن الحسين". فقد ساءه أن يقطف منافسه هرثمة ثمرة الانتصار بعد أن كانت له اليد الطولى في سقوط بغداد الوشيك. فما إن لمح ذاك الزورق يتهادى في النهر حتى أمر جنوده بإطلاق قذائف المنجنيق عليه فاحترق القارب وانقلب بالخليفة المنكود في النهر، ولكنه نجا وظل يسبح حتى وصل إلى الضفة الأخرى حيث كانت تصطف بعض بيوت مبنيّة من القش

كانت للصيادين والفقراء. كان الجنود المدججون بالسلاح يراقبونه بأعين لا ترف ولا تغمض عن كل شاردة وواردة، بينما ظل الخليفة المخلوع ينتقل هارباً من بيت إلى بيت وهو في حالة يرثى لها قبل أن يستضيفه صياد وحيد ضعيف البصر.

ولم يكد يتخذ مجلسه حتى اقتحم البيت ثلّة من الجند فأحاطوا به وقتلوه وهو مكبّ على وجهه. احتزّوا عنقه وحمل أحدهم الرأس المقطوع على مقدمة رمحه، بينما انشغل الجنود الخراسانيون بربطه من قدميه ثم ربطه في سرج وضع على حصان جامح وسحلوه في طول بغداد وعرضها.

استمر ذلك المشهد الدامي والمروّع يحدث أمام أعين الناس المذهولين حتى صُلب على أحد أبواب بغداد مهترئ الجسد ومقطوع الرأس...

ولو قدّر أن يجري تصنيف الناس في تلك الأيام لرأيت منهم الشامتين ومنهم المشفق ومنه من كان لا يهمه إلا قوت يومه.

وأنا أين كنت من كل ذاك؟

لقد كنت أرقب الأحداث بقلب واجف وعين زائغة، وأشعر بالخطر في كل خطوة أخطوها. ولكن ما كان يخفّف عني هو أنني كنت أتوقّع مثل هذه النهاية لهذا الخليفة المنكود السيّئ الحظ. وتوقّع البلاء يخفف من صعوبة وقعه على النفس أثناء حدوثه.

لزمت بيتي والحزن يكتنفني وضخامة الأحداث ودمويتها تُعجز لساني عن الكلام.

كانت بغداد في السنوات الخمس التي تلت اجتياحها تنتظر الخليفة المأمون الذي لبث في خراسان بطلب من قادته حتى يتمكّنوا من بسط سيطرتهم على هذه المدينة القلقة التي ما فتئت تعج بثورة وراء الأخرى

بعد مقتل الأمين، ولكن تلك الثورات قُمعت بقسوة حتى تم إخضاعها. وبهذا لم يكن هناك بد من مجيء الخليفة ليتسلّم عاصمة ملكه.

وقد جاء، بعد أن استغرق مجيئه وسيره في الطريق شهوراً عديدة قاربت العام. فقد كان يمكث في أي مدينة في طريقه شهراً أو شهرين. وقبل مجيئه بأيام قلائل كانت بغداد قد هُيئت له، فزينت شوارعها وتمّ إصلاح الكثير من مواطنها التي مسّتها الحروب والثورات بالتدمير، وتمّ تجديد قصورها الثلاثة وتزيينها لتكون في أبهى صورة.

كان مجيء الخليفة الجديد المأمون قد أحدث جلبة كبيرة بين الناس، فما إن كان موكبه المهيب يشق شوارع العاصمة حتى يهتف الناس له ويرفعوا أصواتهم بالدعاء له.

كان موكباً عظيماً، وقد سرت في ذاك الصباح من بيتي إلى الكرخ ووقفت مع الناس أراقب الاحتفال الكبير وأتأمل الجنود والرجال والأحصنة المطهمة التي تسير في ترتيب صارم، حتى لاح الموكب السلطاني، فلمحت الخليفة المأمون يدخل عاصمة ملكه مبتسماً للناس المرصوصين على الجانبين وهو يلوّح لهم بيده اليمنى وممسكاً برسن حصانه بيده اليسرى.

كان كل شيء بإمكانه أن يمرّ مرور الكرام بالنسبة إلي ولكن ذلك لم يحدث. فقد لمحت في رجال الحاشية المحيطة بالخليفة أستاذي وسيدي القديم: إسحاق الموصلي...

انزويت خلف الحشود وعدت إلى بيتي أرجف فرقاً وخوفاً وقد غطاني العرق من رأسي حتى قدمي...

وشعرت بمخاوفي القديمة تنبعث من مرقدها مرة أخرى.

طيلة الأيام الفائتة لم أخرج من بيتي شبراً واحداً إلا للضرورة القصوى، وخصوصاً بعد أن تناهى إلى مسامعي أن الخليفة الجديد – كعادة كل ملك أو سلطان أو خليفة في بداية ملكه – بدأ يصنّف الناس الذين هم معه والذين كانوا ضده أثناء كل الأزمات والحروب الماضية في السنوات السابقة!

كنت أتسلّل من بيتي مثل اللصوص. أقضي حوائجي ثم أعود من دون أن يشعر الآخرون بوجودي بينهم!

وبما أنني كنت واحداً من رجال الخليفة الذبيح الراحل الأمين، فقد شعرت بالخوف، فلزمت البيت وأغلقت بابي عن كل ما يدور حولي، مؤثراً السلامة.

ولكنني كنت مخطئاً في قراري هذا!

بسبب عزلتي تلك سبّبت الضرر لنفسي ولم أعرف بما يجري حولي، ما أفقدني اتخّاذ القرار الصائب في الوقت الملائم. وكان هذا من الأخطاء التي جاءت توابعها وتوالت عليّ مما كان له وقع شديد على نفسي.

فما لبث أن زراني في بيتي سيدي القديم: إسحاق الموصلي.

كان يبدو في أفضل حال، وإن بدا لي أكثر تهجّماً وشراسة وتكبّراً. فهو ولا ريب من رجال البلاط المقرّبين للخليفة الجديد.

كان قد رحل من بغداد أيام الأمين الذي طرده شر طردة بعد ذلك اللقاء الشهير المخجل والمذل، فذهب إلى خراسان وأظهر ولاءه للمأمون الذي قرّبه منه وجعله من ندمائه ورجاله، فهو ما زال رجلاً مهماً ولديه رؤية شاملة ومهمة في ما كان يحدث في بلاط الخليفة القتيل، وفوق ذاك كان من رجال أبيه الأوفياء.

كانت الأوضاع قد استقرت نسبياً في بغداد بعد قدوم الخليفة الجديد المأمون. كان بلاطه يزدحم برجال من صنف آخر، فهم في غالبيتهم علماء وفقهاء ومؤرخون ورجال كلام وبلاغة. وشهدت بيت الحكمة في عهده اتساعاً غير مسبوق، فازدحم المكان بالنساخين والمجلدين والمؤلفات التي كانت تستجلب من أماكن كثيرة. والشيء الغريب أن الغناء والمغنين قد اضمحل سوقهم، فلم تعد تسمع نغمة في قصر أو بيت فاره أو حتى في جلسة سمر عادية على شط دجلة. لم أكن أعلم ما إذا كان المأمون ورجاله أولئك النفر الذين جاءوا معه من الفقهاء السطحيين الفارغين من كل إحساس صادق أو شعور مفعم بالمحبة قد قصدوا بذلك استمالة الناس والتلميح لهم بأن كل ما له علاقة بالفسق والمجون والفحش الذي يأتي من الغناء والمغنين الذين هم أُسّ كل بلاء قد انتهى في عهده وولى إلى غير رجعة. وجاءت توابع هذه التعبئة الذهنية سريعاً فقد امتلأ المكان فجأة برجال متجهمين عابسي الوجوه، وجُلّ همهم التضييق على الناس في الطرقات والبيوت وعلى

شاطئ دجلة. فما إن يقتربوا من مجلس أنس أو فرح أو تزجية وقت حتى تموت الكلمات الجذلى على الشفاه، وتتلاشى البسمات من فوق الوجوه، لتحلّ محلّها تعابير غاضبة متصنّعة تظهر خلاف ما تبطن...

أستطيع أن أحصي ثلاثة أشهر مرّت منذ قدوم الخليفة الجديد و لم أسمع فيها أحداً يترنّم بأبيات من الشعر أو يدق على صنوج أو يضرب على أوتار عود أو ينقر على دف...

أيعقل ذلك؟

وربما هذا ما جعلني أستنتج أن سيدي القديم إسحاق الموصلي قد هجر الغناء والطرب وانضم الى ذاك الفريق وتلك الجوقة الكارهة لنسق الحياة الهينة اللينة.

ربما كان استنتاجي صحيحاً...

وخصوصاً بعدما جاءني بعد حوالى أربعة أشهر من قدومه في معيّة الخليفة الجديد إلى بغداد في موكب من الجند والحرس والمسك الذي يفوح من ثيابه يسبق خطواته. كان ثلاثة من جنوده الأشدّاء قد فتحوا باب داري عنوة. كسروا الباب وتنحّوا جانباً ليفسحوا لسيدهم الدخول، بينما كنت واقفاً مكاني لا حول لي ولا قوة. دخل مرفوع الرأس شامخ الأنف كأنه رجل عاد إلى بيته بعد غياب. لم يعد يحمل شيئاً من ملامح سيدي القديم على الإطلاق. وما إن رآني حتى قال لي ساخراً وكأننا لم يغب أحدنا عن الآخر أكثر من ثلاثة عشر عاماً:

- من قال إن الصفحات القديمة قد طويت؟

لم أفه بكلمة واحدة..

لم أكن مفاجأً بهذه الزيارة؛ بل إني كنت أتوقّعها ولكن ليس بهذا

الشكل الفجّ. لم أنبس ببنت شفة، فقد كنت أدرك تمام الإدراك أن الكلام، مجرد الكلام، في هذه الحالة يعتبر نوعاً من العبث الذي لا طائل وراءه.

لذت بالصمت بينما استمر في الكلام:

– هيييه يا فتاي القديم... ماذا فعل الله بك في السنوات السابقة؟ كم تبدو الدنيا صغيرة وأيامها التي تكرّ سريعة تبدو كرفة جفن...

– ألا تعرف؟

–...............

تنحنح بخفوت وقال لي بنبرة عالية وعيناه ترسلان شرراً:

– ما زال عرضي القديم لك قائماً. فالقافلة التي وعدتك بها ما زالت بانتظارك في مكانها وإن تغيّرت الوجوه والسحن، والقيّم عليها، وهو من رجالي المقربين، ما زال في انتظارك. ارحل. لا مكان لك اليوم في بغداد ولا في أرض السواد كلها.

أمسكني من تلابيبي وضغط على صدري وقال لي:

– سترحل أليس كذلك؟ لا تجبرني على أن أقتلعك اقتلاعاً من هذه المدينة. لا أعتقد أنك ما زلت راغباً في إحراق بيتك مرة أخرى، أو أن يقوم رجال ملثمون بالاعتداء على زوجتك مرة أخرى. ارحل وإلا...

لم يكن في حاجة إلى كل هذا التهديد ولا إلى هذه السبابة المرفوعة في وجهي. فأنا سأرحل على كل حال. كنت سأرحل عاجلاً أو آجلا عندما تحين اللحظة المناسبة، وهاهي قد جاءت. سأرحل فليس لديّ أي رغبة في البقاء، وليته وفّر على نفسه كل هذا العناء.

٢٢

وحانت اللحظة المنتظرة!

اللحظة التي دام انتظارها طويلاً استمر زهاء ثلاثة عشر عاماً وأكثر.

المنفى...

نعم هو المنفى...

تحركت قافلتي الصغيرة مع بوادر الربيع. كانت مؤلفة من ستة من الجمال وبغلتين وثلاثة أحصنة أهدى إليّ اثنين منها الخليفة الراحل الأمين، وواحد جاءني هدية من ابن ماسويه قيّم دار الحكمة الذي لا أعتقد أن الخليفة الجديد سوف يجعله يستمر في منصبه.

قبيل الفجر انطلقنا، وأحسست بتلك القشعريرة والمرارة وذلك الإحساس الظالم والبشع للاقتلاع القسري للبدن والروح من الجذور والمنبت يفتتني إلى أشلاء.

كانت بغداد تبدو في ذاك الفجر كنثار من الغبار هبّ فجأة في صحراء قاحلة بعد انتظار دام سنوات من الصمت الهشّ والموجع.

ومع شروق الشمس التي سطعت بنورها على قافلتنا في ظاهر بغداد، اصطدمت وجوهنا بذلك اللون الكئيب لصباح قُدّر له أن

يكون صباحاً مؤلماً وجارحاً في أولى خطوات المنفى.

وجاءت أولى المفاجآت...

لم أكن أتوّقع أن يصدق معي سيدي القديم إسحاق عندما أخبرني بأن القافلة القديمة كانت تنتظرني خارج بغداد. كنت أعدّ ذاك من ضروب التفنّن للمساهمة في سرعة إخراجي من بغداد ووسيلة بليغة للقول إن السنوات الماضية لم تكن لتمضي عبثاً .

في قرية "الدجيل" الواقعة شمالي بغداد، وجدت قافلة كبيرة الحجم مكوّنة من حوالى أربعين رجلاً. تقدم مني قائدهم وهمس في أذني بأنه مُكلّف من قبل سيده إسحاق الموصلي بتأمين سُبل الحماية والراحة لي، وتبليغه بخطواتي نحو المنفى خطوة خطوة من دون أي تراخ أو تأخير. ضحكت كثيراً من قوله ومن سبابته المهدّدة والمصوّبة إلى أنفي، ولكني كتمت ضحكتي قبل أن تتمادى كثيراً.

ليته يعرف جيداً هو وسيده بأنني قد وطدت العزم على الخروج من منفاي منذ أكثر من ثلاثة عشر عاماً، ولديّ رغبة أكيدة في عدم العودة، فلا يوجد هناك من داع كي يرسل رجاله وجواسيسه لترصّد حركاتي وسكناتي.

سكتّ على مضض، بل وجدت تلك مصادفة أسداها إلي عدوي لكي يرعوي اللصوص المنتشرون على طول النهر من الطمع في قافلتي الصغيرة التي كبرت عندما اختلطت بالقافلة الكبيرة، فبدت من تلك القوافل التي تسترعي النظر كلما مرت بمدينة أو قرية.

ثم بدأنا المسير، ومضينا في طريقنا حتى أجبرتنا حرارة شمس النهار القائظة على التوقف. أنخنا رواحلنا في شمال قرية الدجيل

على بعد عشرة فراسخ من بغداد عند الظهيرة، على أن نستأنف المسير مع زوال الشمس لنخفف قليلاً من غلواء الحر والقيظ، رغم أننا في أول الربيع، ولكنها كانت شمساً لا ترحم.

مع الزوال غادرنا قرية الدجيل بأوامر كانت غليظة من قائد القافلة الذي في المناسبة كان اسمه "قيس".

كان ينحدر من نواحي سنجار - كما همس لي أحد رجال القافلة - فلا ريب أن تجتمع فيه غلظة الأعراب وعجرفة التركمان. كانت له قامة طويلة ولحية كثة وأنف محدودب من الوسط وفكّان غليظان كأنهما فكّا ذئب. قلت لنفسي لقد أحسن الموصلي في اختيار الوصي المكلّف بنفيي من أرض السواد.

ماذا أريد أكثر من منفى وقلب كسير وسوء أدب يتلبّس رجلاً غليظ القلب؟

لم يكن لنا سوى الامتثال لغلظته وأوامره المجحفة. سرنا بمحاذاة دجلة. كانت القرى تكثر على ضفتيه قرى أصابها البؤس وحلّت بأهلها الحاجة والعوز.

ومن المشاهد المؤسفة التي حدثت أمام بصري مباشرة كانت عندما أنخنا رواحلنا في قرية تعرف بـ"الحربة"، وما إن شعر سكانها بنا حتى بدا كأنهم فرحوا برؤيتنا، ثم انهالوا وتقاطروا علينا من كل حدب وصوب بوجوههم الكسيرة وأجسادهم الضامرة التي أرهقها المرض والفقر. كانوا يسألوننا بإلحاف عن شيء يتبلّغون به ويسدّ جوعهم وجوع أطفالهم وأشياخهم، ولكن كان لقائد قافلتنا رأي آخر في التعامل معهم، فقد أمر رجاله المسلحين بالاستعداد لكفّ هؤلاء

الجوعى عن قافلتنا، فانتهروهم وحدثت بينهم وبين الجنود معركة صغيرة غير متكافئة انتهت بمقتل رجلين منهم فانسحبوا وهم في حال من الشقاء لا يعلمه إلا الله وحده.

ولكن كان لهذا التصرّف الأرعن ثمن غال...

ففي منتصف الليل، هاجم هؤلاء الجياع قافلتنا بهراواتهم ومُداهم وسيوفهم الصلدة، وقتلوا ثمانية رجال وجرحوا قيساً قائد القافلة جرحاً كبيراً في فخذه، ثم استولوا على أربعة جمال بقروا بطونها وهبروا لحمها بأسيافهم تقطيعاً وتمزيقاً قبل أن يختفوا عن الأنظار في لمح البصر بغنيمتهم التي تقطر دماً.

هذه المعركة لم تستمر سوى وقت قصير، وقد حدث فيها ما حدث. وذهبت إلى متصرف القافلة "قيس" في خيمته المنصوبة في العراء فوجدته يئن من جرحه ودمه يسيل بغزارة. كنت أريد أن أقول لهذا الرجل الغليظ المسمى "قيس" إن الوقوف في وجه رجل جائع هو أشبه بالوقوف أمام وحش كاسر لا يتورع عن التهامك بشتى السُبل، وقد قلت له ذلك فلم أحظ منه إلا بنظرة استحقار واستخفاف وشموخ بالأنف. مدّ سبابته في وجهي وقال لي بجفاء:

– اصمت ولا تتدخل في ما لا يعنيك. ثم طلب مني الخروج من خيمته، فخرجت غير آسٍ لما آل إليه من حال هذا المعتوه التعس الغليظ القلب...

أشار علينا رجل بالمسير قبل أن يعاود هؤلاء الناس هجومهم على قافلتنا بأعداد أكبر من الرجال الجياع.

حمل رجال قائد القافلة قائدهم قيساً على محفة بسبب سوء جرحه

ونزفه الكثير من دمائه، وأسرعنا في السير حتى وصلنا منهكين، وقد هدّنا التعب والإنهاك وجعلنا أشبه ما نكون بالأشباح، إلى "حصن المعشوق" على شطّ دجلة.

كان هذا الحصن الكئيب المنظر مبنياً بشكل دائري ويتّسع لحوالى مئة شخص بكل عتادهم ودوابهم. وعند اقترابنا منه لمحنا كتيبة من الفرسان أثارت الغبار وهي مقبلة نحونا. كانت قادمة من جهة الحصن، وعندما انقشع الغبار لمحنا عشرة فرسان مدجّجين بالسلاح، فاقتربوا منا، وعندما علموا بحالنا ساقونا إلى الحصن الذي كان يبعد حوالى أربعة فراسخ من مكاننا الحالي، وهناك علمت أن هذا الحصن لم يُبنَ إلا ليكون ثكنة عسكرية لحماية الخليفة الراحل هارون وزوجته المفضّلة زبيدة، فقد كانا يمضيان وقتاً قليلاً فيه خلال العام، وذلك لطيب هوائه ووفرة صيده وموقعه الفريد.

اضطررنا إلى المكوث في هذا الحصن قرابة شهر ريثما يلتئم جرح قيس الذي ساءت أخلاقه كثيراً، وبالأخص عندما وجد نفسه طريح الفراش لا يستطيع الحركة والمشي إلا محفوفاً بين اثنين من رجاله، أحدهما يسنده عن يمينه والآخر عن شماله.

كانت زوجتي تبكي طيلة الوقت، أما أنا فقد تشاءمت واضطربت نفسي بعد البداية السيّئة لبداية طريق المنفى.

قالت لي زوجتي وهي تضع يدها على عينيها وتجهش بالبكاء:

– لماذا يحدث لنا كل هذا؟ ما الذنب الذي اقترفناه؟

ماذا أقول لها؟ هل أقول إن أقدم داء أصاب بني البشر وهو الحسد قد أخرجنا من ديارنا؟

هل هو طموحي الذي بدأ يكبر ووضعت أمامه العراقيل باكراً؟
هل هي رغبتي في العيش الكريم بعيداً عن المنغّصات والمصاعب التي بدأت من قصر الخليفة في تلك الليلة المشؤومة...

لم أجب عن أي سؤال من تلك الأسئلة التي كانت تؤرقني، لذا لذت بالصمت تاركاً المقادير تجري في سبيلها المحتوم.

سرنا في غبشة الفجر الوادعة وفي السماء خيوط من ضوء رمادي شحيح نحو تكريت. وقد قررت أن أجعل سفري الطويل هيّناً وسهلاً بقدر ما أستطيع، وبدأت أولى خطواتي في سبيل ذلك.

كانت قافلتنا تسير الهوينى وفي جدّية كأنها ثكنة عسكرية تسير على الأرض، فلا مجال للضحك أو تبادل الكلام أو حتى الحداء...

كلنا كنا متوتّري الأعصاب بعد تلك المعركة التي فوجئنا بها. نسير صامتين وكأن على رؤوسنا الطير. كان لا بد من الخروج من هذا الجو المكتنز بالكراهية والترصّد، ولن يتم ذلك إلا إذا لان قلب متصرّف القافلة وحاميها.

ولاحت لي فكرة نفذتها على الفور...

هديّة غالية غيّرت كل شيء في لمح البصر وجاءت بنتائج أدهشتني.

كنت قد أهديت قيساً متصرّف القافلة مهرة عربية من تلك التي أهدانيها الخليفة الراحل الأمين. كان الغرض منها التخفيف من شدة غلواء قيس وتليين قوة شكيمته التي لا أرى لها مبرراً على الإطلاق. ولشّدة دهشتي، فقد سرّ بها الرجل سروراً عظيماً وانقلب تعامله معي

إلى الضد، فأصبحت – ويا لدهشتي – أحد جلسائه الخُلّص وسميره المفضّل في سفرنا الطويل. وقد سرّني أنا ذلك بالفعل. وتذكّرت قول رسولنا الكريم محمد صلوات الله وسلامه عليه "تهادوا تحابوا" ويا لها من نصيحة!

في أمسيات كثيرة كنا نتسامر وقد رفعت بيننا الكلفة. كثيراً ما افترشنا الرمل الناعم على ضفة دجلة ونحن جالسون حول نار مشتعلة. كنت حينها أخرج عودي وأمرر ريشتي على أوتاره عازفاً بعد أن كنت لا أستطيع إخراجه في الأيام السابقة بسبب حالة الاستنفار التي كنت أعيش في دوامتها. كنت أغني لقيس فيضرب على فخذيه طرباً يريد المزيد. وكنت أزيده ويا للغرابة، فقد ترقّق قلب الرجل، بل إنني فوجئت به ذات يوم يعترف لي، وهو محاولاً كفكفة دموع انبجست من عينيه رغماً عنه، بحبّه لفتاة من بلدة "نصيبين" رفض والدها تزويجه إياها فقرر الهجرة إلى بغداد حاملاً جرحه معه.

أيقنت الآن أن الظاهر، ظاهر الأشياء والأشخاص، يخدعنا كثيراً، فلطالما كانت الغلظة ستاراً لقلب رقيق مثل قلب قيس أو لحب دفين، ولربما كانت الأَريحية ستاراً للخبث والدهاء.

بعد أن توطدت الأواصر بيني وبين متصرّف القافلة يمكنني القول إن سفري قد أصبح هيّناً نوعاً ما، فقد كنت أطلب تمديد أيام الراحة كيفما أشاء أو أختزلها كيفما أشاء، وقد خفّف هذا كثيراً من حزن زوجتي وأصبحت تمنحني بين الفينة والأخرى ابتسامة أو طيف ابتسامة من شفتيها. كنت أذكّرها بسنواتنا الماضية عندما كنا تحت كنف إسحاق الموصلي ومن غلمانه. كانت تبتسم كثيراً وتغضّ بصرها عندما أذكّرها

بتسلّلها إلى حجرتي في قصره في الليالي الماضيات.

نعم، أستطيع القول الآن إن الأمور أصبحت أكثر سهولة من ذي قبل. وعلى هذا فقد دخلنا إلى "تكريت" عبر سورها القديم مع غروب شمس اليوم الخامس والأربعين من سفرنا. صحيح أنها مدة طويلة قياساً بقصر المسافة من بغداد، ولكن بعد أن جُرح متصرّف القافلة في معركة الجياع إذا جاز لي تسميتها بذلك ومكوثنا في حصن المعشوق قرابة شهر...

وكأنما بدأ قيس يشعر نحوي بمشاعر أكثر إيجابية، فقد اعترف لي ونحن نتناول عشاءنا في أحد خانات تكريت بأن إسحاق الموصلي قد حذره مني وألقى في روعه أنني رجل مغضوب عليه من خليفة المسلمين المأمون وأنه مسؤول مسؤولية كاملة عن إلقائي خارج حدود بلاد الرافدين، وقد وعده بمكافأة مجزية وبحظوة لدى الخليفة إن هو أحسن تأدية المهمة المسداة إليه، وقال لي خجلاً:

– ربما يفسّر لك هذا سبب قسوتي عليك، ولكن...

تلفّت الرجل حوله ثم أشار إليّ بأن أقترب منه أكثر وقال لي هامساً:

– ولكني كنت مضطراً إلى فعل كل تلك القسوة وجفاء المعاملة، فالأمر لن يخلو من واشٍ ومن رجالي تحديداً، وعليه فربما سأقسو عليك قليلاً أمام بصرهم حتى... حتى...

لم يكمل المتصرّف حديثه. لم يشأ أن يقول حتى أبلغ بك خارج حدود العراق حيث أكون في منأى عن إسحاق الموصلي وطموحه وأحلامه وحسده وحقده.

هوّنت عليه، وقلت له إنني قد أزمعت الرحيل إلى بلاد الأندلس

حيث يكون بيني وبين عاصمة الخلافة بحر الظلمات وبحر من الرمال وعدد لا يحصى من البشر والشجر والحجر، ولا نيّة لي بالعودة على الإطلاق...

وحينما ألقيت بكلماتي تلك، ظهر البِشر والارتياح على وجه الرجل، وكأن همّاً أزيح عن كاهله، وأخذ يغمرني بلطفه ورعايته حينما نكون بعيدين عن أعين الجند، ويغلظ عليّ بالقول في حضورهم. وأنا بدوري يبدو أنني قد استمرأت اللعبة وبدأت أجيدها وأتلوّن كيفما أشاء تحت ستارة من التواطؤ العذب والذي دائماً ما يختم بضحكات طويلة ومتصلة في غياب الجنود وبعيداً عن أعينهم المتلصّصة.

مكثنا في تكريت أسبوعاً كاملاً، وقد فوجئت باتساع مساحتها واكتظاظ أسواقها الكثيرة. كانت تغصّ بالخلق الذين وجدت أكثرهم ذوي مروءة وشهامة.

كانت مدينة عامرة يشقها نهر دجلة من وسطها، ولو طلب مني أن أمكث فيها وقتاً أطول لمكثت.

ولكن في صبيحة اليوم الثامن دخل إلى الخان الذي نقطن فيه جندي مسلح بدت عليه وعثاء السفر. كان يحمل بيده مكتوباً. طلب هذا الجندي لقاءً منفرداً بقيس، وسلّمه الخطاب، ثم عقد يديه على صدره وهو يسلقه بنظرات حادة. تناول قيس منه المكتوب ففضّه وقرأه. كنت أرى انقباض ملامح وجهه وتهدّل شفتيه. وما إن انتهى من قراءته حتى انتقل من النقيض إلى النقيض، وهاج وماج وأمر القافلة بسرعة الاستعداد للرحيل على الفور ومن دون أي تأخير.

٢٤

طوال ثلاثة أيام متصلة لم ألتقِ بقيس في مجلس أو نتبادل الكلام أو حتى نتشارك في الأكل. قيس الذي بدا واجماً عاد إلى عدائيّته القديمة وأصبح أكثر قسوة من ذي قبل. كان يثور لأتفه الأسباب. بل قام بجلد أربعة جنود بالسياط لانفرادهم عن القافلة وذهابهم إلى إحدى القرى التي كانت تدعى "الجديدة" من دون إذنه. و لم يكتفِ بذلك، بل جرّدهم من سلاحهم وأوكل إليهم مهمة تعليف بهائم القافلة ونصب الخيام وطيّها مرة أخرى. كانت عقوبته القاسية تجريدهم من امتيازهم كجنود، وإسناده إليهم نوعيّة تلك الأعمال التي تحتاج إلى جهد، ونصب وصبر شديدين.

استمرت قافلتنا تخبّ في السير في صمت مهيب وتوجّس. و لم نكن نتوقف إلا للضرورة، كقيلولة خاطفة أو للسقيا وملء قرب الماء الفارغة أو تبديل بعض الرواحل التي أنهكها السير المتواصل والحثيث.

وعاد كل شيء إلى التوتر والغضب والخوف والتصنّع في الكلام والحركة، وحتى اللفتة والإيماءة كانتا تؤوّلان بتأويلات شتى...

وأصبح السفر قطعة من العذاب بالفعل...

كنا سنسير إلى ما شاء الله بهذه الوتيرة حتى بلغ منا الإعياء مبلغه،

و لم نعد نطيق الصبر، فاستعطفنا قيساً متصرف القافلة. بكت النسوة بين يديه حتى لان قلبه أخيراً. أوقفنا رواحلنا وقد أرخى الليل سدوله في ساحة ترابية واسعة.

كان التعب والنصب قد حلّ بنا، فما إن لامست أقدامنا الأرض حتى أسرعنا بنصب خيام قليلة لكي تستر النساء والأطفال عن أعين الفضوليين، وبعدها لم نشعر بشيء. فقد غططنا في نوم عميق لم نَصْحُ منه إلا عندما ازداد سعال الرجال والنساء، وتعالى صراخ الأطفال وبكاؤهم. كانت أعين الرجال والنساء قد احمرّت. كانوا يضعون أيديهم على أنوفهم وصدورهم وهم يسعلون سعالاً شديداً. وهاجت الجمال والرواحل والبغال والخيول وكادت تدوسنا قبل أن نتمكن من معرفة السبب الفعلي لحدوث كل هذه الضوضاء.

لم نكن ندرك أننا قد اخترنا المكان الخطأ لكي ننال قسطاً عزيزاً من الراحة طال انتظاره.

كنا قد خيّمنا في أرض تدعى "القيارة"، وتحديداً في الجانب الشرقي منها، حيث حملت لنا الريح تلك الروائح المؤذية. وتأكدنا من ذلك بمجرد سيرنا بضع خطوات شمالي موقعنا الذي توقفنا فيه. رأينا قريباً منا وهدَة من الأرض كان السواد يغطيها لمسافة شاسعة، وتنبع منها عيون من القار الأسود اللون ذي الدخان الكثيف الكريه الرائحة. كانت الأرض تبقبق وتغلي، وبين الفينة والأخرى ترتفع كرات من اللهب قبل أن تستقر وينداح منها صلصال أسود ينبسط فوق أديم الأرض. وهناك على مسافة قريبة نوعاً ما، كان ينبعث من الأرض دخان أسود يكتم الأنفاس ويسيل الدموع والمخاط من الأنوف،

حينها أدركنا سوء المكان، ولم يكن هناك بد من مغادرته على الفور.

أسرعنا في جمع خيامنا التي نصبت كيفما اتفق، وعلى عجل فككنا قيود الرواحل ثم انطلقنا لا نلوي على شيء، حتى وصلنا إلى قرية صغيرة بالقرب من الموصل تسمى "العقيبة".

وهناك تنفسنا الصعداء.

ولكن مهلاً...

هل قلت الموصل؟

لم أنتبه إلى نفسي إلا وأنا أردّد اسمها على لساني.

يا مالك الكون والبشر وكل الخلائق...

ها أنذا أعود إلى أرض البذرة الأولى والبسمة الأولى والدمعة الأولى...

هذه الموصل التي ما فتئت تقضّ مضجعي. حتى وأنا أعيش في قصور بغداد لم تنسنيها الأيام ولا حتى الأحلام ولا الخيبات ولا الأفراح والأتراح...

حتى تلك الكوابيس المتكررة التي قضّت مضجعي ليالي طوال. الرايات والبنود. الجنود والخوذات التي تلمع تحت وهج الشمس. أمي الباكية. سنابك الخيل والدماء والصياح والبكاء برزت فجأة أمامي وأصبحت مثل الحقائق التي لا لبس فيها...

يا الله، ألهذا الحد تمضي الأيام سريعة متعجلة!

منذ متى غادرت الموصل؟

ثلاثون عاماً مرّت. نعم ثلاثة عقود انصرمت وكأنها ثلاثمئة عام إذا قستها بمقياس الشوق والحنين.

كنت أتساءل ما إذا كانت مدينتي القديمة ستستقبلني بالترحاب

مرة أخرى، أنا ابنها العاق الذي هجرها أو أخرج منها عنوة؟ هل ستغفر لي زلتي وهجري لها؟ هل أقول لها إني قد خرجت منها عبداً وعدت رجلاً حرّاً؟

لا يفصلني عنها سوى مسيرة نصف يوم أو أقل. هذه المدينة الضاربة الجذور في عقلي وقلبي. هذه المدينة العتيقة الحصينة والفخمة. هذه المدينة التي كانت ولا تزال على أهبة الاستعداد لغزوة أو غارة في رائعة النهار أو في جوف الليل. إنها على أتم الاستعداد لكل المفاجآت، فلا يربكها شيء ولا يخيفها شيء، ولا يفرحها شيء أيضاً.

انتابتني خِفّة في حركتي، وحتى نبض قلبي كان يخفق بسرعة عندما بدأنا الاستعداد للرحيل إليها.

كانت الموصل على مرمى حجر من هذه القرية البائسة المنسية على ضفاف دجلة.

ومع كل خطوة كان شيء ما يتضخّم في صدري. شيء مثل بذرة نبتت واستطالت في زمن قصير. أنا "السجين" الذي غاب سنوات مديدة قد عدت مرة أخرى إلى موطني، ولكنني ويا للأسف لن أمكث فيه كثيراً. لقد جئته مسيّراً وتحت مشيئة الآخرين الذين حكموا عليّ بالنفي من كل مكان. شعرت بأن لي فيه جذوراً وروابط تشدني إليه...

وها أنذا لن أبرح إلا قليلاً قبل أن أستأنف طريق منفاي مرة أخرى بلا حول مني ولا طول.

ثم سارت القافلة تخب في طريقها نحو مسقط رأسي. وعندما لاحت لي بيوتها وبساتينها ومآذنها في سراب الصحراء، بدأت أبكي بصمت في داخلي، ولا أدري أكنت أبكي فرحا أم شوقاً.

٢٥

كنت كالوليد الذي أخرج من رحم أمه ثم عاد مرة أخرى إلى ظلمة الرحم...

لكنني ويا للأسف - وجدت الرحم ضيّقاً ومظلماً. ربما لأن الأماكن التي نغيب عنها مدة طويلة ويحرقنا الشوق إليها، سرعان ما تموت تلك الحرارة عندما تلامس أقدامنا أديم ترابها مرة أخرى بعد غياب. لكأنها تعاقبنا بالجفاء بسبب هجرنا لها. لم آتِ إلى هنا لكي أبقى، ولكنني جئت إلى هنا وشعوري بأنني مجرد مسافر عابر سيرحل عمّا قريب أحزنني كثيراً. هذا كان شعوري وقافلتنا التي لا يزال التعب يهدها ويضرب أطنابه في أوصالها وهي تجتاز البوابة الضخمة التي بقيت كما هي في ضخامتها واتساعها وجبروتها أيضاً.

مع ظهيرة اليوم التالي كنا نعبر سور الموصل وبوابتها الكبيرة.

كانت ساعة من الشوق اللاسع والحنين القاتل الذي انسكب مني رغماً عني قبل أن يتلاشى وكأن شيئاً لم يكن...

وانتابتني قتامة في المشاعر من ذلك النوع من الذي ينمو في طينة

من الأوجاع والجنون والتناقضات...

في كل زاوية كانت تنهمرعليّ الذكريات. ذكريات أيام غابرة انهالت كحجارة ثقيلة تهطل على ذاكرتي من أبراجها العالية التي تعلو السور الذي يحيط بها. شممت رائحة الطفولة وبراءتها في ربضها الواسع الذي يتوسط المدينة. لمحت مساجدها وأسواقها وخاناتها تعلوها تلك المسحة من الحزن القاتم والمرير. وكمسافرين غرباء أنخنا رواحلنا في قيسارية التجار التي تنتشر في ما حولها الحوانيت، ومن على مرمى حجر يلوح لك جامعها القديم الذي بناه مروان بن الحكم في عهد بني أمية الزائل.

وفي أحد الخانات الواسعة أرحنا أجسادنا المكدودة والمتعبة.

كان قيس متصرّف القافلة ما زال في حاله المكفهرة ووجهه الناضح بالغضب.

في ليلة وصولنا، وقبيل منتصف الليل، سمعت طرقاً على الباب. أمسكت بقنديل مضيء في يدي، وعندما فتحت الباب فوجئت بقيس يقف أمامي محمرّ الوجه أشعث الشعر أجعد الثياب. طلب مني الدخول ليحدثني في أمر لا يحتمل التأجيل. فوسّعت له الطريق لكي يدخل. جلس مهموماً على مصطبة بجانب الباب. نفخ في الهواء ثم قال معتذراً:

– إني أرجو عفوك يا سيدي، فلا بد من إيضاح كل شيء أمامك قبل أن يقدر الله لهذه الرحلة الاستمرار في طريقها...

– ماذا بك يا صديقي؟

وكأنما كلمة "صديقي" قد فتحت أبواباً مغلقة أوصدها الظن

السيّئ في الأيام الفارطة، فتهلّل وجه متصرف القافلة بالبشر قبل أن يكمل الحديث:

– أوتذكر ذلك الرجل الفارس الذي التقينا به في تكريت؟

بعد لحظة تفكير قصيرة قلت له:

– نعم.

– هل تعرف هذا الرجل يا سيدي أبا الحسن؟

عرضت وجه الرجل على ذاكرتي فرفضته فقلت له:

– لا.

– لقد كان ذاك الرجل أحد رجال إسحاق الموصلي...

توقف المتصرف عن الكلام وكأنه يقيس مدى وقع اسم الموصلي على مسامعي، ولكنني جهدت ألا تصدر مني أي لمحة انفعال.

– ماذا يريد؟

مطّ متصرف القافلة شفته السفلى ثم قال:

– لقد وشى بي بعض الجنود. أرسلوا مع أحد تجار القوافل التي صادفتنا في طريقنا ما دار بيني وبينك من ودّ وصداقة، ما أثار حفيظة إسحاق الموصلي، فأرسل إليّ ذلك الجندي مهدداً ومتوعداً لي بأشد العقاب، وبأنني قد خنت الأمانة لكونك أصبحت نديمي وصديقي المقرّب، في حين كان من المحتم عليّ أن أسيء معاملتك ما دمت موجوداً على أرض العراق...

توقف قليلاً قبل أن يكمل حديثه:

– اعذرني يا سيدي في ما بدر مني في الأيام السابقة، فللوُشاة أعين تترصّد كل نأمة تصدر مني أو منك على السواء.

– هكذا إذن. ذلك ما يفسر ما حدث في الأيام السابقة.

– نعم يا سيدي...

ثم استأنف كلامه قائلاً:

– فلتستعد للرحيل يا سيدي من الآن، فلن نمضي في الموصل سوى ثلاثة أيام فقط نستبدل فيها رواحلنا ونتبلّغ مؤونتنا من هنا قبل استئناف المسير.

وضع يده اليمنى على كتفي اليسرى معتذراً ثم انصرف.

كنت أرغب في أن أحصل على أكبر قدر من الراحة في الأيام القادمة ما دامت وتيرة سيرنا ستكون بمثل هذه العجلة. ولكن لا أدري لماذا أصرّت زوجتي على أن تزور "التل المبارك".

أرادت أن تزور "تل التوبة" بعد أن تغتسل في العين المباركة التي اغتسل فيها سيدنا يونس عليه السلام وأمر قومه بالاغتسال منها، ومن ثم التوجه إلى التل الطيني المخلوط بالحصى، والذي يقع إلى جهة الشرق من الموصل.

كانت تلك طقوس من ضمن أخرى كثيرة يقوم بها أهل الموصل والتركمان أيضاً. كانت أرضهم أرض تاريخ وأرض أنبياء وعُبّاد ونُسّاك لهم شهرتهم التي وصلت إلى كل مكان.

في ثاني يوم لوصولنا ألحّت عليّ زوجتي في الذهاب إلى "تل التوبة". كان لا بد من أخذ الإذن من متصرف القافلة حتى لا يفهم غيابنا خطأً ونقع في المحظور. كنت أريد في الدرجة الأولى أن تتم هذه الرحلة على خير ومن دون أي منغصات. وعندما عرضت طلبي على متصرف القافلة قبل بذهابنا ولكن على مضض.

استعنت باثنين من خدمي لكي يحملا ما نحتاج إليه من مأكل ومشرب، وكذلك بعض الثياب التي عزمت زوجتي على أن تتصدق بها على فقراء التل.

كانت تلك هي اللحظة الوحيدة التي سأنفرد بها بزوجتي الباكية دوماً بعد أيام من عذاب السفر وجهامة الأيام ووحشتها، لذا فقد انطلقنا كالأطفال الذين مُنحوا وقتاً للعب والفرح لا نلوي على شيء إلى العين المباركة.

ووجدناها كما هي لم يتغير فيها أي شيء سوى أن عدد الفقراء قد زاد على ما كان في سابق الأيام عندما كنت أزور التل برفقة أمي في طفولتي البعيدة والنائية.

لا أستطيع وصف دموع زوجتي التي اختلطت بماء النبع. كانت تجهش بالبكاء إلى درجة أنها ببكائها الممض ذاك قد لفتت أنظار الزوار والمريدين، وبصعوبة استطعت إقناعها بالعودة بعد مضي وقت طويل في النبع، على أن نمر إلى تل التوبة بعد أن نعبر نهر دجلة، وهو ما حدث.

وفي تل التوبة كان المكان لا يخلو من الناس. فترى منهم الباكين والحزانى وذوي الحاجات، كل بما يخصه.

كانت صفية تنتقل بي من هذا المكان إلى هذا المكان وقد أسلمت لها قيادي عسى ذلك أن يخفف من حِدة مصائبها وجزعها الذي لازمها طوال الأيام الماضية.

ومع غروب الشمس عدنا مرة أخرى إلى الموصل حيث من المقرر أن نمضي ليلتنا الأخيرة قبل الرحيل إلى نصيبين.

٢٦

مع زوال اليوم التالي سَرت حركة محمومة في القافلة، فقد كانت على أهبة الاستعداد لمغادرة الموصل بعد أن تزوّدت بالمؤن واستبدلت الرواحل المنهكة، بسبب طول الطريق وأسلوب السير المتسارع، برواحل أخرى نالت نصيباً مجزياً من الراحة والغذاء.

كان عدد المنتسبين إلى القافلة قد ازداد. جلّهم كانوا يريدون الذهاب الى نصيبين حيث يكون مفترق الطرق إما إلى الشرق وإما إلى الغرب.

"نصيبين"... التي كان يلفظ اسمها متصرف القافلة قيس بوَلَه وبصوت خفيض وقد سطعت تلك اللمعة من عينيه وارتسم على ملامح وجه فرح طاغ كان يحرص ويجاهد لإخفائه.

كان قد دار بيني وبين قيس حديث طويل بثّ فيه لي لواعج نفسه وحدثني عن أمر يخصّه لأول مرة منذ أن غادرنا بغداد.

وهنا في الموصل عرفت لأول مرة أن قيساً كان عاشقاً!

نصيبين بلد الحبيبة التي رفض والدها اقترانها بقيس.

هكذا إذن...

لم أكن أعلم أن من هُم على شاكلة هذا الرجل الجاف المشاعر يهتزون أمام شجرة الحب السامقة. ولماذا ألوم غيري وأنا في هذه اللحظة أرتعش فرحاً وشوقاً لأنني كنت مثله أشعر بالمشاعر نفسها عندما وطئت قدمي أرض الموصل بعد غياب طويل.

الحب ليس حب الرجل للمرأة أو حب المرأة للرجل فقط، بل هناك حب المكان وانسكاب الذكريات التي تهطل من العقل والوجدان، حب البيت، ودفء العشيرة.

وغادرنا الموصل وفي القلب غصّة وألم يحرق حنايا الصدر.

استمر سيرنا الحثيث حتى ضحى اليوم التالي حيث قررنا الاستراحة في قرية "عين الرصد".

كان من الغريب أن تحتوي تلك القرية على كثير من الخانات والنُزُل رغم صغر مساحتها وقلّة ساكنيها، ولكن العجب زال بمجرد أن عرفنا أننا قد أصبحنا على مفارق طرق كثيرة. فإذا أوغلت في السير شمالاً تجد بلاد الروم، وإذا سلكت جهة الشرق فبلاد فارس وخراسان، وإذا اتجهت غرباً فدونك بلاد الشام فمصر فأفريقيا... ثم... ثم... الأندلس إلى حيث قررت أن أتجه في سفري الموغل في البعد هذا.

وقريباً من قرية "جدال"، وعلى يمين الطريق تحديداً، يوجد جبل "الجودي" الذي استوت عليه سفينة سيدنا نوح عليه السلام.

وقد غادر القافلة عدد محدود من أفرادها بغية زيارة هذا الجبل. ذهب بعضهم وعاد، وبعضهم الآخر قرر أن يختار الطريق المناسب لسفره، إما شمالاً أو غرباً أو شرقاً.

هنا تحديداً لا أدري لماذا شعرت بأنني قد أوغلت في البعد، وانتابني

شعور طاغ بالغربة والوحدة. ذلك الإحساس الذي ما فتيء يستمرئ التنكيل بيٍ ويفتّ في عضدي ويجعل الدنيا صغيرة وحقيرة في عيني. ودست أوجاعي وتناسيتها ولو مؤقتاً.

وانطلقنا من "جدال" باتجاه نصيبين. سرنا معظم سحابة النهار بسبب غيوم حجبت عنا الشمس فخففت من حرارتها، فلم نتوقف إلا بعد أن رأينا تلك البساتين التي تقع خلف المدينة وفي آخرها.

كانت نصيبين من تلك المدن المتوسطة الحجم التي يكثر فيها الغرباء دوماً. كانت من ذلك النوع من المدن التي تكون في الغالب على الثغور والمنافذ، حيث تنشط حركة القوافل منها وإليها، فاستمرارها من استمرار تدفق القوافل عليها لكي تحيا وتستطيع الصمود في وجه مصاعب الحياة.

وقد أخبرني قيس بأنها جنة الله في أرضه، ولكن خاب ظني قليلاً عندما اكتشفت أنها تختلف بظاهرها عن باطنها. فعندما تكون على مشارفها تبدو لك مدينة حسنة، ولكن عندما تلجها تجد بيوتها تتزاحم وأسواقها تتداخل، وشوارعها ضيقة لا يوجد في داخلها فسحة تستطيع القول إنها تتسع حتى لعشرة رجال بعتادهم ورواحلهم. ولكبر قافلتنا وعظم حجمها، فقد خرجنا إلى ظاهر المدينة، وفي أحد الخانات المتسعة النظيفة التي بُنيت خارج أسوار المدينة ألقينا بأحمالنا ثم سرعان ما غططنا في نوم عميق بسبب الإجهاد والتعب.

لا أدري أكان ذلك في منتصف الليل أم قبل الفجر عندما سمعت طرقاً على باب حجرتي. نهضت متثاقلاً أجرّ قدميّ جرّاً، وعندما فتحت الباب وجدت قيساً أمامي. كان يغطي نصف وجهه بطرف

عمامته ويرتدي ثياباً رثّة. وقبل أن أنطق بكلمة واحدة كان قد سحبني من يدي ثم قادني إلى خارج فضاء الحجرة...

- ما بك؟

- سترافقني الآن؟

- إلى أين؟

- إلى... إلى...

ثم صمت ونكس رأسه إلى الأرض.

أما أنا فقد بدأت أفهم، ولكني تركته يقول ذلك بلسانه.

و لم يستطع المسكين الكلام، فقد احتبس حلقه بالبكاء. وعجبت أن مثل هذا الرجل المعدوم المشاعر والإحساس، كما يتبادر إلى ذهن كل من رآه أو سبق أن تعامل معه وجهاً لوجه، يبكي أمامي مثل طفل سُلبت لعبته من يده.

لبثت قليلاً حتى أمكّنه من استجماع شتات نفسه، ثم قال لي بصوت بدا كأنه ينبع من قعر بئر:

- سترافقني إلى بيت من...

أجبت بدلاً منه:

- إلى بيت من أحبها قلبك وملكت منك الفؤاد. لماذا تخفي ذلك؟ ليس عيباً أن يحبّ المرء أو يُحَبّ. قل إلى أين ولا تتردد.

لم يجب، فأكملت:

- سأرافقك إلى حيث تكون حياتك وموتك وبعثك ونشورك...

لمحت طيف ابتسامة على وجهه ثم قلت له بنبرة فخمة:

- هيا بنا أيها العاشق.

وهل أملك بداً من أن أرافق رجلاً عاشقاً إلى حيث يكون بيت حبيبته؟ فمثل هذه اللحظات الفريدة من نوعها تسمو فيها الأرواح وتصعد إلى أعلى وتتطهر بماء الحب فتغدو كسحابة مثقلة بالخصب والنماء.

أقفلت الباب على زوجتي وخرجنا متسللين من الخان، ثم ابتلعنا ظلام الليل.

أخذتنا خطواتنا إلى نصيبين، وتحديداً إلى حيث يكون منتصفها وقلبها. وعرفت أنه إذا ما أراد المرء أن يكتشف مدينة ما تطأها قدمه لأول مرة فعليه أن يبدأ من منتصفها ثم يشرّق أو يغرّب كيفما شاء. ففي المنتصف تتكشّف أمامك المدن. تزيل دثارها وتعرض عليك بسخاء أسرارها الواحد تلو الآخر.

كان الليل في ثلثه الأخير عندما عبرنا في العتمة أزقة ضيقة وبيوتاً متقاربة بشكل حميمي ومتلاصق. وجزنا في سيرنا حارات متقاربة تغوص في الصمت والظلام. كنا نرى انعكاسات ظلّينا على جدرانها الطينية والحجرية. كان القمر ساطعاً ويسكب لونه الفضي على المكان مكوّناً مسحة من سحر أخّاذ. ولكن الخوف كان يسكنني. كنت أسأل نفسي وألومها ما إذا كنت محقاً بترك زوجتي بمفردها خارج هذه المدينة المنكفئة على نفسها. وعندما حاولت أن أتباطأ في السير أو أن أقول كلمة احتجاج، كان قيس يسحبني سحباً وينظر إلي بعينيه اللامعتين ويضغط على ذراعي ويجرني إلى جانبه بإصرار عجيب. طال سيرنا حتى توقف قيس فجأة أمام منزل حوله أشجار ضخمة تحيط به من كل جانب. حينها أطلق قيس يدي. أماط لثامه ثم بدأ يتطلّع

إلى البيت بكل تفاصيله. كانت لحظة طويلة من الصمت مرّت قبل أن يفيق إلى نفسه. وعندما أدار وجهه نحوي كانت عيناه منطفئتين وقد خفّ منهما ذاك البريق والوهج منذ لحظات، ثم بدأ يطلق أصواتاً من فيه يحاكي بها أصوات العصافير والطيور. وما هي إلا لحظات حتى لاح من آخر الزقاق شبح متدثر بالسواد من رأسه الى أسفل قدميه. وانتفض قيس كأنما لدغته أفعى، ثم تقدّم نحو ذلك الشبح. لم أحتج إلى كثير من ذكاء لكي أخمّن من يكون ذاك الشبح المتدثر بالسواد. كانت حبيبته التي أُجبر على تركها، والتي لم يرَ والدها أنه جدير بابنته. مكثا يتحدثان وقتاً لا بأس به قبل أن يعود ذلك الشبح إلى الزقاق المعتم ويعود إليّ صاحبي متوتّر الجسد وأنفاسه تتلاحق. وبحزم أدهشني جرّني من يدي وعدنا أدراجنا إلى الخان الذي كنا نسكن فيه. وحمدت الله كثيراً على أن وجدت زوجتي لا تزال نائمة، وحالما تمددت إلى جانبها أطرقت أفكر في مغامرتي الليلية تلك وأعيد تفاصيلها المرة تلو الأخرى.

و لم أشعر بنفسي إلا ضحى اليوم التالي.

٢٧

مع زوال اليوم التالي، بدأنا التحّرك من نصيبين. كانت دهشتي على أشدها عندما لاحظت البشر طافحاًعلى وجه قيس. تراءى لي خفيفاً بشوشاً. بل لقد داعب نفراً من رجال القافلة على عكس ما كان في الأيام السابقة من تجهّم في الوجه وغلظة في القول والفعل.

مال نحوي بجذعه هامساً ونحن نجتاز بوابة نصيبين العالية بأن طريقنا من هذه اللحظة سيكون متعباً وشاقاً، فلا بد أن نكون على أهبة الاستعداد لمفاجآت الطريق التي من المحتمل أن تكون غير سارة.

وعندما سألته عن السبب سرد لي بعض مخاوفه:

– الطريق وعر المسالك تتخلّله فيافٍ وقفار خالية من كل سبل العيش، ويكثر قطّاع الطرق قبل الوصول إلى أقرب مدينة كبرى لنحظى بالأمان المفقود.

وكان محقاً، فقد كانت هناك الكثير من المدن الملتهبة بالقتال في ما بينها. وبالمجمل، فإن تلك القرى والمدن والدساكر عندما شعرت أنها بعيدة عن مركز الخلافة وفي مأمن من العقاب، فإن بعضها كان يستأسد على البعض الآخر وعلى غيرها.

ثم أردف بلهجة الواثق من معرفة المكان وأسراره:

– سيكون علينا المرور بتل العقاب ثم رأس العين ثم حران، ثم نسلك الطريق الطويل نحو حماة فحمص فدمشق، وسيمتد رحيلنا عبر عكا وصور فسيناء، وسيكون علينا أن نفترق في الإسكندرية قبل أن...

وهنا انقطع حبل كلامه وأدار وجهه إلى الجهة الأخرى، قبل أن أكمل أنا جملته المبتورة وقلت هذه الكلمات وكأنني أخاطب نفسي لا أخاطبه هو:

– حينها يتأكد متصرّف القافلة من هجرتي إلى منفاي، براً كان ذاك أو بحراً، نحو القيروان ثم بلاد المغرب فالأندلس...

وتنهّدت قبل أن أكمل:

– يا لها من رحلة طويلة!!

وران بيننا صمت ثقيل الوطأة قبل أن ينسحب كل واحد منا في جهة معاكسة للآخر.

كنت أتساءل كيف ستكون حالي في هذه الرحلة الطويلة:

– هل سأتماسك حتى نهايتها أم سأنكص على عقبي عائداً إلى بغداد حيث سيكون قتلي هناك لا محالة النهاية الأكثر دموية وصدقاً؟

مهما يكن، فإنني لن أفرّط في حياتي أو أخاطر بعائلتي حتى لو مكثت طوال سنيّ حياتي راحلاً. فمهما طال الطريق فسأصل، وسيمتد بي العمر إلى أرذله. وسأرعى عائلتي حق رعايتها، وسأدفع عنها الشرور بكل الوسائل الممكنة، حتى لو كان ذلك ثمنه حياتي نفسها. كانت تلك الأفكار تتجاذبني. تشدني هنا وهناك، حتى دخلنا

مدينة "رأس العين" أولى مراحل الطريق إلى بلاد الشام.

لم يستطع ماء رأس العين الزلال والشهير بصفائه وبطعمه ونقاوته أن ينسيني مرارة الفقد والحنين الذي بدأ يضرب أطنابه في حنايا صدري. ولقد صليت في جامع الخليفة عمر بن عبدالعزير، الخليفة الأموي الأكثر عدلاً وشبهاً بجده الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه. وكانت دموعي تسيل مني رغماً عني. فأيّ ذنب جنيته حتى أغادر بلادي ووطني رغماً عني. والغريب كل الغرابة أن شعوري الممض والقاسي قد زاد بعد خروجي من أرض العراق. فحينما كنت سائراً على أرضه وداخل حدوده لم تكن تنتابني مثل هذه المشاعر القاسية. هل كان هذا بسبب الأمل الذي يحدوني بأنني سوف أعود يوماً بعد أن تنكشف الغمّة؟ أم هو ذاك الإحساس الغامر بمدى قرب انفراج الضيق؟ أم هي تلك الرهانات التي كنت ألجأ إليها عندما يشتد ضعفي ويبتعد الأمل وتنقطع خيوطه؟ كانت تلمّ بي أمنيات من قبيل: هل سيفتقد الخليفة المأمون غيابي ويسأل عني ويشعر بالندم لاستماعه إلى الوشاة لتلطيخ سمعتي؟

وحينما يعلم ما حدث لي، هل سيطلب إعادتي وإسباغ كرمه علي ويعاقب سيدي إسحاق الموصلي على ما فعله بي من تعذيب وتنكيل؟ أم كنت أراهن على رهافة إحساس سيدي إسحاق نفسه، فلربما حنّ ورقّ قلبه على غلامه الأثير، فيبدأ بإعادتي من الطريق والاعتذار مني؟ وبكل تأكيد سأقبل عذره. لكن لا هذا ولا ذاك حدث. فقد تخلّوا عني، بل إن إسحاق أرسل معي قيساً، رجله القاسي القلب، لكي يكون مرافقاً لي في رحيلي وطريق منفاي، في مقابل ماذا؟

ليتني أعرف.

ولكنني لن أعرف سوى شيء واحد، هو أن منفاي قد كُتب عليّ، فلن يهتم بأمري أحد بعد اليوم. بل إن غيابي عن الأنظار هو الحل الوحيد لهذه المصاعب والمتاعب.

كانت الأيام التي تلت تمر ببطء، وقد وضعت سوراً عالياً من نار بيني وبين سنواتي السابقة. ومع تهادي القافلة في الصحاري والأودية والجبال والواحات، ومع تعاقب الليل والنهار، حاولت أن أتناسى كل شيء: بيتي الصغير والدافئ، إسحاق الموصلي، بغداد، الغناء والعزف، تناسيت حتى الحلم والطموح لأكون شيئاً مذكوراً.

لن أتوقف كثيراً عند تلك المدن التي مررت بها. كانت في أغلبها تتشابه في نظري، و لم أشعر نحوها بأي ودّ أو رابط سوى رابط الشعور بالغربة والنفي والاستبعاد.

٢٨

ووصلنا دمشق...

عاصمة بني أمية التي كانت إلى عهد قريب سيدة المدن ومقر الخلافة.

في دمشق شعرت بالحزن والانقباض. لم يهدّئ من حزني طيب هوائها وثمارها وأنسها وصخبها وضجيجها.

لم نلبث في دمشق كثيراً، فقد كانت هذه المدينة تئن تحت الثورات المتلاحقة بسبب مجازر أمراء بني العباس بحق أهلها، وخصوصاً على البقيّة الباقية من أمراء بني أمية. كانت تلك المجازر لا تزال ماثلة للعيان ولم تجف دماؤها بعد. كانت هناك ثورة عثمان الأزدي ثم ثورة يزيد السفياني وأعقبتهما ثورة أبي العميطر. كانت دمشق عندما دخلتها لأول وهلة تبدو مثل أم مكلومة فقدت أولادها دفعة واحدة في حروب عبثية انتقامية لا ذنب لأهلها فيها.

لقد أهملتها الخلافة في أرض العراق، ولم تنظر إليها إلا بعين الشك والريبة والعداء.

كانت أياماً معدودة قضيناها في خان ملاصق للجامع الأموي من

جهة الشرق، و لم نكن نشعر فيه بالأمان بسبب سؤالنا الدائم عن المكان الأصلي الذي قدمت منه قافلتنا. كنا في غنى عن العواقب التي من الممكن أن تحدث لو قلنا إنها قادمة من بغداد.

لم يطل بنا المكوث.

فخرجت قافلتنا إلى ظاهر دمشق من جهة الغرب.

وهناك كان الوداع وآخر العهد بمتصرف القافلة قيس...

عدوّي الذي أصبح صديقي، قيس العاشق المتدثر بثوب الغلظة والفظاظة.

وعلى مشارف دمشق الغربية ودّعت قيساً وداعاً حقيقياً هذه المرة.

طال صمتنا قبل أن يقطعه قيس.

فقال لي بصوت حزين:

- لا يوجد هناك داع لأن أرافقك حتى الإسكندرية كما هو مقرر، لأني أدرك أنك لن تعود القهقرى على عقبيك. سأخبرهم هناك بأنك قد قطعت صلتك بأرض العراق كلها ولا رغبة لك في العودة.

كان الرجل حزيناً و لم يستطع أن يكفكف دمعة رغم شدته وغلظته، ولكنه إنسان على كل حال. شددت على يده وتمنيت له بالفعل قدراً أفضل من أن يكون مجرد سيف نقمة لغيره، ففيه الكثير من معاني الرجولة المغلّفة بالحزم والشّدة. ولكي أخرج من جوّ الوداع الثقيل قلت له مداعباً:

- وأتمنى على كل حال أن تحظى بحبيبتك في نصيبين وتلتقيا هذه المرة كزوجين.

وكأنما ألهبت هذه الكلمات صدره فتلاشت ابتسامته واقترب مني، ثم وبلحظة خاطفة ضمني بقوة إلى صدره. لا أدري كم مكثنا على هذه الحال قبل أن يتركني ويأمر رجاله بالاستعداد للعودة إلى دمشق ثم إلى بغداد.

انضممت مع عائلتي إلى قافلة تعود لتجار من غزة أغلب حمولتها من الحرير الموصلي الشهير بجودته. ومضيت برفقة عائلتي قاصداً نحو الغرب والشمس تجنح إلى الزوال، قبل أن نتوقف قرابة منتصف الليل لكي نرتاح قليلاً في أحد البساتين المنتشرة على الطريق.

أيام كثيرة مرت، كنت أغرق فيها مع ذاتي محاولاً قدر الإمكان تخفيف مصاعب السفر عن عائلتي التي هي أثمن ما أملك في هذه الدنيا.

هل نجحت في مسعاي هذا أم أخفقت؟ الله أعلم، ولكنني بدّدت أياماً كثيرة في التناسي وتهيئة نفسي لتوفير كل سبل الراحة لعائلتي التي كان الصمت يشمل معظم أوقاتها.

توقفنا مراراً في قرى ومدن، ولكن قلبي كان مغلفاً بطبقة من صخر عنها فلم أحفل بها، ما إن أدخل مدينة أو قرية حتى أتهيّأ للرحيل مرة أخرى.

ولم أنتبه لنفسي إلا وأنا في طريقي نحو الإسكندرية.

طال طريقي بالفعل. ولم يلفت نظري شيء في الطريق نحو الإسكندرية سوى بعض تلك العواصف الرملية التي هبّت علينا أثناء عبورنا سيناء باتجاه أرض مصر، وأيضاً سمعت الكثير عن الاضطرابات التي تحدث في فسطاط مصر وتوالي الولاة الواحد تلو الآخر.

كان ولاة مصر يعانون الويلات بسبب هيجان الناس وعدم قبولهم الظلم، فهم كانوا يشعرون أن أرضهم أصبحت مجرد سلّة كبيرة لجباية الأموال للخليفة العباسي البعيد في بغداد، وقد عانوا كثيراً من التسلّط فكانوا دائمي الشغب والهرج والمرج.

كنت أنتقل من قافلة إلى أخرى، أسير في ركابها أياماً قد تطول أو تقصر، تكبر القافلة أو تصغر، شتاءً وصيفاً، راحة وتعباً، حتى وجدت نفسي يوماً ما على مشارف الإسكندرية.

كانت الحال أهدأ في الإسكندرية عندما وصلتها ذات يوم شات.

في إحدى الحارات القريبة من البحر استأجرت بيتاً لأقضي فيه فترة الشتاء قبل أن تستأنف السفن رحلاتها مرة أخرى إلى بلاد المغرب مروراً بأفريقيا بعد انقضاء الشتاء، ويهدأ البحر من هيجانه بسبب العواصف التي تحدث في هذا الفصل لكي أرحل إلى بلاد أفريقيا وتحديداً إلى القيروان.

لم أرد أن أغامر بعائلتي واستمر في السفر براً قاطعاً أرضاً شاسعة مليئة بالمخاطر. لم أرد السير في أرض غير مألوفة ومليئة بكل ما يثبط همّة المسافر حتى لو كان بمفرده، فما بالك بمن كانت عائلته معه. وطدت العزم على السفر بحراً رغم المخاطر المحتملة، ولكنها لا تقاس بمخاطر برّ مصر الغربي وبرّ أفريقيا الصعب والمجهول.

في نهاية الشتاء بعت جمالي الأربعة والمهرتين العربيتين الباقيتين في سوق المواشي بثمن مجزٍ. وبعد جهد ليس باليسير، استطعت أن أؤمن مكاناً لي ولعائلتي على متن إحدى السفن المتجهة إلى مدينة في بلاد أفريقيا يقال لها سوسة، ومن ثم سأستمر في طريقي إلى القيروان التي

كان يحكمها أمير قوي له سمعة ذائعة في بغداد وغيرها يدعى زيادة الله بن الأغلب.

ومع فجر يوم مشمس غادرت السفينة التي كان جلّ حمولتها من العتاد الحربي من سيوف ورماح وسهام وأقواس، وأيضاً حفنة من الخيول العربية الأصائل. وهمس في أذني نوتي يعمل على السفينة بأن تلك الحمولة في الأصل موجهة إلى تعزيز جيش زيادة الله بن الأغلب، الذي كان يعاني هو الآخر من ضبط جنوده العرب والصقالبة والبربر الذين اشتد بينهم التنافس ومن ثم تطور إلى تصادم لإثبات القوة والمنعة. كانت كل فئة تسعى إلى الاستئثار بالأهمية القصوى وإلى أن تكون لها اليد الطولى في السيطرة على القيروان، بل وكل ما يحيط بها من أخطار معظمه كان يأتي من البحر حيث يكون الروم المتعطشون دوماً للسيطرة على بلاد أفريقيا وشواطئها ذات الموقع المهم.

في خضم هذه المعطيات وجدت نفسي مبحراً نحو سوسة ثم إلى القيروان وفي نفسي شيء من القلق. فقد كانت كل الأمور تشي بخطر مبهم، ومع ذلك قلت لنفسي لربما كانت تلك مجرد وساوس ومخاوف تصيب من يركب البحر لأول مرة في حياته. وطرحت مخاوفي على ذلك البحار الذي ضحك من مخاوفي وقال لي مهدئاً من روعي إني سأصل بإذن الله إلى القيروان سالماً ولا مبرر للقلق، فكل الأمور تسير على أحسن ما يرام.

ولا أعرف لماذا ألحّ علي هاجس كتابة رسالة إلى حاكم بلاد الأندلس أعرض عليه نفسي وأضع تحت يده كل مواهبي وأيضاً سمعي وطاعتي. راقني ذلك وقررت في نفسي وفي حال وطئت قدمي بلاد

القيروان أن أكتب رسالتي تلك. كل هذا أشعرني بالاطمئنان ولو قليلاً.
وتذكرت ذلك الخطاب الذي حمّلني إياه صديقي ابن ماسويه إلى أحد أقربائه في قيادة جيش ابن الأغلب. قلّبت أغراضي بحثاً عن هذا الخطاب الذي كنت قد نسيته في الشهور السابقة ووجدته مطويّاً في أحد صناديقي الشخصية. تناولته، ثم فضضته لكي أقرأه، ولكنني فوجئت بأنه لم يكن مكتوباً بالحرف العربي، بل بحروف لغة أخرى حاولت جاهداً أن أستبين منها أي كلمة فلم أفلح. طويت الخطاب وأعدته بعناية إلى مكانه في انتظار أن أسلّمه إلى ذاك الشخص الذي قال لي صديقي ابن ماسويه إنه يدعى "ليو". تذكرت وصيته بأن أقول لهذا "الليو" إنني من طرف يوحنا وليس يحيى حتى يتمكّن من خدمتي بالشكل اللائق والمناسب. كنت في هذه اللحظة أشعر بالامتنان الكبير ذاته لهذا الصديق القديم، صديق الحرف والمعرفة، والذي أسدى إليّ الكثير من خدماته من دون أي مقابل سوى إحساسه الصادق بأنني شخص قد تعرّض لظلم بيّن وأنني لا أستحق كل ما يحدث لي.

بعد إبحار دام ثلاثة أسابيع، لمحت من مقدمة السفينة ذات صباح صافٍ شاطئ سوسة.

٢٩

لمحت ذات صباح رائق، وتحديداً في اليوم العشرين على الإبحار من الإسكندرية، شاطئ سوسة الرملي الأبيض. كان منظر زرقة البحر مع ذاك الشاطئ الرملي الناعم والبيوت التي طليت من الخارج بالجير الأبيض جعلها تبدو مثل قطعة من فردوس أرضي. كانت تختال في زرقة البحر المخلوطة ببياض بيوتها وأسوارها مثل حلم ناعم. شمس باهتة وسماء ينتشر فوق أديمها السحاب مثل قطن أبيض. ومع اقترابنا رويداً رويداً من الشاطئ المعمور بالبشر والجنود والصيادين والناس العاديين انتابني والبحارة الحبور والفرح، لأن رحلتنا كانت على أيسر ما يكون. فلم نتعرّض لسلب القراصنة ولم تعترضنا سفن الروم التي كانت تجوب الأرجاء. والفضل في ذلك يعود إلى ربانها الماهر الذي لم يتوغّل في البحر، بل سار بمحاذاة الشاطئ قليلاً، والذي كان يُرى حيناً بأرضه ومدنه وقراه وناسه ويغيب حيناً عن نظرنا في سفرنا الطويل.

لمحت أمام حشد الناس المنتظرين جنوداً فاق عددهم مئة جندي على وجه التقريب. كانوا يقفون صفاً واحداً وقد تمنطقوا بسيوفهم وأمسكوا برماحهم. شعرت بخوف، فالتفتّ إلي الربان ناقلاً له هلعي

بنظراتي المتسائلة، فوجدته يبتسم في وجهي ويقول بهدوء:

- لا تخف أيها البغدادي، فهؤلاء الجنود يريدون تفريغ السفينة من حمولتها من الأسلحة، وسوف يمضون في حال سبيلهم فور انتهائهم من مهمتهم.

توقفت السفينة تماماً على الشاطئ واستقرت حركتها. وما إن رست السفينة حتى تقدمت ثلة من الجنود منعوا الحمالين من ركوب السفينة، إذ سرعان ما ألقوا على مقدمتها سلالم خشبية وشدوها بحبالهم الغليظة، وقد أحصيت نحو عشرين رجلاً امتطوا ظهر السفينة في حين كان البقية منهم واقفين على الأرض يسددون أبصارهم نحونا من دون أن تطرف أعينهم. وأسرع نحو الربان رجل بدا لي قائد هذه الفرقة من الجنود، فتبادل مع ربان السفينة كلمات مقتضبة ثم تبعه بالصعود إلى السفينة ثلاثة جنود. وصرخ القائد في جنوده الواقفين على الأرض بصوت أجش قائلاً:

- هيا... فليصعد عشرون جندياً الآن.

صعدوا بسرعة البرق، فأخرجونا منها بنوع من الاستعجال قبل أن يمتطي ظهرها جنود كثر أشدّاء ضخام الأجساد. وفي وقت وجيز عبّأوا ما فيها من سلاح في صناديق ضخمة ذات عجلات من خشب كانت تسحبها خيول كبيرة الحجم.

أخرجت زوجتي وولديّ عبد الرحمن وعبدالله وابنتي حمدونة التي بدت لي كأنها كبرت في غفلة مني. وما هي إلا لحظات حتى التفّ حولنا عدد كبير من المكاريين كانوا يتسابقون في عرض خدماتهم علينا. واستأجرت مكارياً عجوزاً بدا لي هادئاً وأشيب الشعر بكامله.

طلبت منه أن يدلنا على أحد خانات المدينة. كنت أريد أن يكون الخان الذي سأنزل فيه قريباً من البحر لكي لا أفقد صلتي بحركة الناس والاستئناس بهم، لكن المكاري العجوز نصحني بأن الخانات التي بجانب البحر ليست آمنة تماماً، وخصوصاً مع اقتراب المساء حيث تشتد المشاحنات بين الجنود والبحارة واللصوص والقوادين والمخمورين. وحكى لي بكلام سريع بعض الحوادث التي وصفها بالمؤسفة. ولا أدري أفعل ذلك من باب الشفقة والنصح أو لأنه كان سمساراً لأحد مالكي الخانات في المدينة التي بدأت تتضح معالمها لي قليلاً كلما أوغلنا في الطريق نحوها.

وعلى كلٍ، فقد شكرت الرجل على نصحه وطلبت منه أن يدلني على خان يؤويني أنا وعائلتي الخائفة، والتي زاد خوفها بعد سماع ما قاله هذا المكاري. استسلمت لمشيئته واجتزنا باب المدينة الضخم، ثم بدأ ضجيج المدينة الجديدة يتسلل إلى أذني، وقادنا المكاري العجوز عبر أزقة ضيقة تتسع في مكان وتضيق في مكان آخر. كنت أشم روائح المدينة الجديدة عليّ وأستغرق في النظر إلى شوارعها وبيوتها وسحنات أهلها. عبرنا أسواقاً مسقوفة ملأى بالناس. كنت أسير وتختلط في ذهني نثار من الأفكار المتضاربة. بزغت الشمس من وراء سحاب داكن اللون تشكّل بعد خروجنا من السفينة فأضاءت البيوت والدور والحوانيت وبدت الحركة تدبّ في المدينة رويداً رويداً. وسار بنا المكاري وقتاً لا بأس به قبل أن يتوقف أمام نُزُل بدا لي جديداً وله أبواب ضخمة من حديد وملحق به بستان صغير المساحة انتشرت فيه عرائش العنب وأشجار التفاح والليمون والبرتقال. كان المكان مثالياً،

وشعرت بشيء من الاطمئنان والراحة. ونادى المكاري بصوت عال على صاحب النزل، وبعد لحظات أقبل نحونا صاحب النزل الذي كان رجلاً بشوشاً مرحاً يضحك بسبب وبلا سبب، فأمسك بيدي مصافحاً وهزّها وضحك بملء فيه، فلمحت سناً ذهبياً يلمع في نابه الأيمن. وقادني وعائلتي مرحّباً بي حتى أدخلني إلى الداخل. كان النُزل جميلاً وأنيقاً من داخله أكثر من خارجه، فهو يمتد في صفين متقابلين في كل صف كانت هناك إحدى عشرة حجرة فسيحة، وفي نهاية هذين الصفين تقع غرف بدت لي كحجرات لإعداد الطعام، فقد رأيت رجالاً ونساءً يتحركون داخلين وخارجين منها وفي أيديهم صحاف الطعام يسيرون بها إلى معظم تلك الحجرات لتقديم الطعام لقاطنيها.

عندما عرف صاحب الخان بأنني قادم من بغداد زاد ترحيبه بي وقال لي إنه سيختار أفضل ما لديه من غرف، واستطرد بالقول إن من دواعي سروره أن يقطن خانه رجلاً قادماً من لؤلؤة الشرق بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية، ووصفني بأنني رجل مهم. ولا أعلم لماذا قال ذلك عني، وعزوت ذلك ربما إلى مبالغة من المكاري الذي أوحى إليه بذلك. تبسمت في وجهه وشكرته على حفاوة الاستقبال. كانت الحجرة التي اختارها لنا صاحب النزل حجرة واسعة مزينة بنقوش محفورة في الجدار ومفروشة ببسط جديدة رائعة، وفي جانبها الشرقي تقبع ستة أسرة فرشت عليها ملاءات نظيفة. وما كدت أتخذ مقعدي حتى سمعت طرقاً على باب حجرتي، وعندما فتحت الباب دخلت ثلاث نسوة بدَون لي في أواسط أعمارهن وفي يد كل واحدة منهن

صحن كبير أحدها مليء بالحساء وآخر بالفواكه وآخر بالخبز واللحم الذي فاحت رائحة شوائه. حيّين زوجتي بابتسامات من أفواههن وهزات خفيفة من رؤوسهن ووضعن الطعام على طاولة قصيرة الأرجل، ثم انسحبن بعد أن قالت أكبرهن سناً إن هذا الطعام هو ضيافة من صاحب الخان، ولن أدفع في مقابله أي نقود. شكرتهن زوجتي فانصرفن، ثم أقبلنا على الطعام وأكلنا بشهية، ثم تمدّدنا على تلك الأسرة، وسرعان ما غططنا في نوم عميق.

٣٠

كانت المسافة بين سوسة والقيروان قريباً من اثني عشر فرسخاً. ورغم أنها مسافة قصيرة، كانت ممتعة. فعلى امتداد البصر تُرى مساحات شاسعة من الخضرة والأودية المجلّلة بالأشجار والخصب، وتبرز منها بوضوح تفاصيل الفرح.

وطيلة الطريق كنت أتحسّس في جيبي خطاب صديقي ابن ماسويه إلى قريبه في القيروان: ليو.

وكنت أيضاً أفكر في كيفية بقائي في هذه المدينة التي معظم ساكنيها من الجنود وعائلاتهم كما قيل لي في سوسة.

"ستجد يا صديقي أن القيروان أقرب إلى ثكنة عسكرية منها إلى مدينة".

وقد سمعت هذه العبارة كما هي من صاحب النزل الذي لبثت في خانه ساكناً قرابة شهر، فأصبح صديقاً مقرّباً إلي بسبب أريحيته وطيب نفسه ونبل أخلاقه. وقد زوّدني الرجل شاكراً ببعض توصياته التي ما زالت ترن في أذني، وهي لا شك ستكون نِعم المعين لي في طريق المنفى، ومن هذه النصائح: عدم منح ثقتي لأي شخص لا أعرفه، وألاّ

أنام خارج أسوار مدينة القيروان، ولا أظهر مقدار ما أملك من مال، وغير ذلك من هذا القبيل من النصائح التي من الممكن أن تحظى بها من قريب أو صديق محب.

كنت أسأل نفسي كثيراً هل من الممكن أن تكون القيروان هي المحطة الأخيرة في المنفى أم أنها ستكون مجرد استراحة لمحطة أكبر وأعظم وأفضل؟ هل ستكون دواءً لحنيني وترياقاً لمنفاي وغربتي؟

هنا شعرت بأنني قد أصبحت نائياً أكثر وبعيداً أكثر عن وطني الأم، وبيني وبينه مسافة تعادل ربما ثلاثة أو أربعة أشهر من المسير. وانتابني ذلك الإحساس المرير بالغربة الذي يجعل مني رجلاً ضعيفاً منكسراً ووحيداً.

يا الله كم أصبحت بعيداً جداً بالفعل.

وشعرت بالحزن يعتصر قلبي والغبن يكاد يستدر دموعي من مآقيها ولكنني تماسكت.

فلا فائدة ترجى من حزن أو دمعة يحركها مجرد حنين أصبح قديماً وعتيقاً.

وقرابة العصر وصلت إلى القيروان.

القيروان...

كانت حاضرة بلاد المسلمين في الجناح الغربي؛ الجناح الأكثر خطراً والأشد غموضاً.

كان أميرها زيادة الله بن الأغلب يتبع الخليفة القابع في بغداد ويدين له بالطاعة ويخطب باسمه في منابر الجمعة، كما فعل جده وأبوه من

قبله، ولكنها تبعية أستطيع القول إنها منقوصة!

كان أكثر حكام الأغالبة يتمتعون بالاستقلالية في الحكم، حتى وإن دعوا على منابر الجمعة لخليفة المسلمين في بغداد.

كانوا في الغالب يُنظر إليهم في عاصمة الخلافة في بغداد على أنهم مجرد حماة للثغر الغربي من بلاد المسلمين، بالرغم من أن لهم حوادث مشهورة في صدّ هجمات الرومان ببسالة معروفة لهم. وكانوا أيضاً لا يرسلون من الخراج إلا أقله، فيبقون الكثير لهم بدعوى أنهم في حالة جهاد وقتال دائمين.

كان هذا الاتفاق الضمني بينهم وبين الخلافة في بغداد قد سار في طريقه المعهود، فلا توجد هناك أي رغبة من الطرفين في نقضه أو المساس به.

دخلت القيروان من باب "أبي الربيع" بعد أن دسست ثلاثة دنانير في يد جندي حارس متجهم الوجه ضيق الخلق للبوابة التي اخترت الدخول منها، وقد حاول أن يؤخر دخولي إلى المدينة بحجج واهية؛ حجج من قبيل أن الوالي أصدر أوامر صارمة بعدم السماح بدخول أي غريب إلى المدينة إلا بعد تفتيش دقيق، خصوصاً أن الوالي زيادة الله بن الأغلب كان على أهبة الاستعداد لقمع ثورة قد أطلّت برأسها في مدينة باجه. كان محرّك هذه الثورة رجل عنيد شديد المراس يدعى زياد بن سهل ويشتهر باسم ابن الصقلبية.

ومالي أنا والثورات؟

إنما أنا مجرد عابر سبيل لا يهمني أي أمر يحدث ليس لي فيه رابط من قريب أو بعيد. وقد أردت أن أقول ذلك لهذا الجندي الذي نثر

كل تلك الكلمات على مسامعي، ولكنني تراجعت عن ذلك في آخر لحظة قبل أن أتفوّه بالكلام، وخشيت أن يفهم مقصدي عكس ما أريد، فيعرقل دخولي إلى المدينة.

ودخلت المدينة.

وأذهلني مدى اتساع قلب المدينة من الداخل، حيث إنها كانت تبدو للرائي القادم من الخارج أنها مجرد مدينة صغيرة وقليلة السكان، ولكنها غير ذلك. فأثناء اختراق دوابنا شوارعها هالني عدد ساكنيها واتساع أسواقها التي يغلب على حوانيتها بيع الزرابي بألوانها الرائعة وكذلك منسوجاتها المتنوعة والمصنوعات الجلدية وبشاشة أهلها للغريب والترحيب به.

وطفقت أسأل عن اسم الخان وصاحبه الذي زودني به صديقي صاحب الخان في سوسة، فتبرّع أكثر من رجل بتوصيلي إلى صاحب النُزل المنشود.

كان صاحب الخان قد استقبلني ببرود، وما إن ذكرت أمامه اسم صديقه صاحب الخان في سوسة حتى تهلل وجهه بالبشر واعتذر بحرارة عن تجهمه في استقبالي بقوله إنه بات يخشى الغرباء لحوادث يطول ذكرها كما قال.

وخصص لي أفضل حجرات النزل مع خادمة ترعى شؤوني وعائلتي كافة. شكرت له حسن صنيعه، ولا أدري لماذا طرأ في بالي "ليو" الصقلبي ابن عم صديقي يحيى ابن ماسويه في هذه اللحظة. وعندما ذكرت لصاحب النزل اسم القائد ليو وأنني أبحث عنه، قطّب الرجل ما بين حاجبيه وقال لي:

- ماذا؟ قلت إنه يدعى ليو؟ لا أعتقد بأنك سوف تجد رجلاً في بلاد أفريقيا كلها يدعى ليو، وإذا كان ذلك الرجل الذي تسأل عنه من أصول غير عربية صقلبية أو رومية أو حتى بربرية مثلاً ففي الغالب أنه قد غيّر اسمه إلى اسم عربي بكل تأكيد. ولن يفيدك في هذا إلا رجل منهم يدلّك على هذا الرجل الذي تبحث عنه، وغالب الأمر أنك لن تجده الآن في القيروان، فهو قد يكون هناك في خارج قصر الحكم في مدينة العباسية مقر الحاكم زيادة الله بن الأغلب نصره الله، وهم على كل حال يستعدون للقضاء على ثورة ابن الصقلبية، ولا أنصحك يا صديقي بأن تتوجه إلى هناك سائلاً عنه، بل انتظر حتى ينكشف أمر هذه الثورة وتعود الأمور إلى مجاريها، حينها يمكنك لقاؤه.

ثم أردف مرحّباً:

- وهذا الخان بكل ما فيه طوع بنانك ما دمت موجوداً فيه، ولي لديك حاجة في صيغة نصيحة. لا تتحرك في هذه المدينة أو إلى خارجها إلا بعد أن تخبرني، حتى أستطيع أن أجنّبك الكثير من المصاعب والمفاجآت غير السارة.

نعم، أدركت الآن صدق من سمّى هذه المدينة بأنها أقرب إلى ثكنة عسكرية منها إلى مدينة. وهذا واحد من أبنائها يحذرني من مصاعبها ومن مفاجآتها التي قد لا تسر.

ولبثت أترقّب لقائي بليو على مهل، وقررت حينها أن أكتشف هذه المدينة رويداً رويداً بصحبة صديقي الجديد صاحب النُزل.

٣١

طاف بي "بكر الباجي" صاحب الخان في القيروان على معظم تجار المدينة ووجهائها، محدّثاً إياهم عني وعن أنني رجل مهم وشخصية لها اعتبار كبير في بلاط الخليفة هارون الرشيد ومن ثم ابنيه الأمين رحمه الله ثم الخليفة الحالي المأمون.

كان يعرّفني إلى تجّار المدينة ووجهائها قائلاً بنبرة فخمة:

- أبوالحسن بن علي بن نافع نديم الخلفاء في بغداد ومحدّثهم ومستشارهم.

وأنا بدوري لم أكن في حاجة إلى كل ذلك. التخفّي وعدم الظهور هما الأفضل إلي، فأنا حتى الساعة لا أعلم ما إذا كنت لا أزال مطارداً من غرمائي هناك في بغداد أو لا. ثم إنني ما زلت في أرض تتبع إلى أرض الخلافة في بغداد، ومن التسّرع القول بأنني قد أصبحت في مأمن من الغدر أو الدسائس. لا بد أن أكون حذراً وألا أجعل من الكلمات المعسولة أو التصرفات الرعناء سبيلاً لأعدائي لتحقيق مآربهم.

ولا مناص من القول إنني بعد مرور الأيام قد حدثت "بكر" عن كل قصتي ولم أُخفِ عنه شيئاً، ولكنه قام باجتزائها وحصرها في

الجانب الذي يراه هو مهماً بالنسبة إليه ويحتاج إلى الإفصاح عنه. لم يكن يهمه نفيي القسري ولا أعدائي في بلاط الخليفة، ولا ترحالي الطويل حتى وصولي إلى هنا. كل ذاك بدا أنه لا يهمه مطلقاً، وتركت له يائساً الطريقة التي يراها مناسبة لتعريفي إلى الناس ومدينتي الجديدة.

كان معظم سكان القيروان من التجار والفقهاء والمعلمين وطلبة العلم وحفّاظ القرآن، ومن حين إلى آخر تُرى مجموعة من الجنود يسيرون هنا وهناك. كانوا بسحناتهم المتنوعة يمثلون خليطاً عجيباً، فترى العرب بملامحهم المعروفة والصقالبة بلحاهم الشقراء وعيونهم الزرقاء والأحباش بسوادهم والبربر بصفرتهم وضخامة أجسادهم. كانوا خليطاً متجانساً انصهر في بوتقة واحدة يحكمهم الرجل القوي زيادة الله بن الأغلب ويشدّ رقابهم بيد من حديد وحرير أيضاً.

وأخبرني مُضيفي بأن لديه خطة محكمة للبحث عن ليو، وأنه سيبدأ بتنفيذها قريباً بشروط أهمها أن أدع له أمر تعريفي بالناس والدخول إلى مجتمع القيروان برفق ومن دون أي ضجة، فأسلمت له القياد وتركت له أن يفعل ما يراه مناسباً.

ومن هذه الخطط أنه قد صدف أنني كنت أسير مع بكر صاحب الخان إلى ظاهر المدينة، وتحديداً إلى مدينة "العباسية" حيث يكون مقر الأمير ووزرائه ورجال دولته وجنوده، وبحكم علاقاته الجيدة مع معظم قادة الجيش، فقد سُمح لنا أحياناً بالدخول إلى المدينة الحصينة والتجوال فيها. كانت هذه المدينة، ويا للعجب، تشبه في تخطيطها مدينة بغداد، فقد كانت دائرية الشكل ويحيط بها سوران أحدهما داخلي والآخر خارجي، وفي المنتصف تقع دار الإمارة والجامع ثم

تليهما بيوت الوزراء والقادة والجنود.

وعرّفني مضيفي إلى "القصر الأبيض" الذي يتخذه الأمير الأغلبي سكناً له، وهنا خفض بكر الباجي صوته وقال لي هامساً:

– أتعرف لماذا لا يسكن أمراء بني الأغلب القيروان؟

وعاجلني بالقول قبل أن يتسنى لي الكلام:

– إنهم لا يطيقون السكن في القيروان بسبب طبيعة أهلها، فهم متدينون متزمّتون ومتمسّكون بالدين بحذافيره، حتى بظواهره الثانوية غير الأساسية التي لا تؤثر في جوهره، وأنت تعرف أن حياة القصور فيها الكثير من مباهج الحياة التي تعرفها.

وهنا غمز بكر بعينيه مبتسماً قبل أن يضيف:

– إن أهل القيروان لا يطيقون أبداً أن يروا تلك "المباهج" تحدث أمام سمعهم وبصرهم، والأمراء يدركون تماماً ذلك الأمر، فهم يبنون القصور والمدن المصغّرة خارج السور لأجل كل هذه الأشياء التي أخبرتك عنها.

وبدأت أفهم بعد هذا الحديث هذه المدينة شيئاً فشيئاً.

كنت أسير مع مضيفي بكر وهو يحني رأسه للقائد هذا أو الجندي ذاك محيّياً ومرحّباً ومداعباً ثم ينتبهون إليّ فجأة فيسألونه عني:

– من هذا الرجل الذي يسير معك يا أبا زياد؟

وكانت الإجابة مثل كل مرة، ينفخ صدره ويقول بالنبرة الفخمة نفسها:

– هذا ضيفي المشرقي القادم من بغداد عاصمة الخلافة، أبو الحسن علي بن نافع نديم الخلفاء ومستشارهم.

كان بعضهم يهزّون رؤوسهم ويبدون غير مبالين بهذا التقديم الفخم، والبعض الآخر كان يتوقف قليلاً وتتلاشى ابتسامته من فوق وجهه ثم يسلقني بنظراته المستريبة المتفحّصة.

وشيئاً فشيئاً كرهت هذا النوع من التعريف ورأيت فيه الكثير من المخاطر والإسفاف أيضاً. فماذا يهمّ الناس إذا كنت نديماً لخليفة أو مستشاراً له، وفوق كل هذا فإن هذه الكلمات ليس فيها الكثير من الصحة، فأنا لم أعد نديماً لخليفة ولا لأمير ولست مستشاراً لأحد ولا يهمني كل هذا، كل ما أريده وأطمح إليه أن أعيش بسلام، سواء في هذه المدينة أو في سواها.

وذات أصيل، وفي واحدة من هذه الجولات، انتحى بكر الباجي جانباً برجل ضخم الجثة أشقر الشعر وقال له:

– مرحباً يا عبدالله، أين أنت يا صديقي بحق الله؟ إنني لم أرك منذ زمن طويل.

والتحم الرجلان في عناق وتحيات وسؤال طويل عن الأحوال قبل أن يهمس بكر في أذن الرجل همساً لم تفُتنِ منه كلمة واحدة:

– لدي حاجة إليك يا صديقي.

هزّ الرجل الآخر رأسه ثم أصاخ بسمعه إلى بكر.

– هل تعرف رجلاً من قادة جيوش أمير البلاد حفظه الله يدعى ليو.

قطّب الرجل بين جبينه ولبث غارقاً في فكره قبل أن يقول:

– ليو؟ ليو؟ لا أعرف رجلاً بهذا الاسم إلا... إلا... إذا كنت تقصد القائد هارون السوسي.

- نعم... نعم ربما هو من أبحث عنه. قل لي أين يمكنني أن أعثر عليه.

- لن تجده في الوقت الحالي، فهو قد ذهب على رأس الحملة التي غادرت لإخماد ثورة ابن الصقلبية في باجه. وسأبلغه بسؤالك عنه إذا التقيت به. وأنت بدورك انتظره فسوف يعود بالتأكيد.

ذهب ذلك الرجل ونظر إليّ بكر الباجي وغمز بعينيه متبسماً.

وشعرت بالراحة، فمن أبحث عنه في هذه المدينة المنكفئة على ذاتها سوف يساعدني بخطاب التوصية على درء المخاطر المحتملة عليّ، وربما ساعدني في الرحيل إلى بلاد الأندلس إذا لم ترقني القيروان.

وحدث ما كنت أخشاه.

كانت القيروان ترسل إليّ إشارات بالرفض لا القبول، ولكنني تجاهلت كل تلك الإشارات ولا أعرف لماذا خانني ذكائي و لم أُولِها العناية الكافية لكي لا تصعب الأمور عليّ في قادم الأيام.

كنت أبحث عن ملاذ، و لم يهمني ما هو نوع هذا الملاذ، وما إذا كان سيقبلني أو لا.

صممت أذني وأسلمت قيادي لبكر الباجي.

واستمر بكر في صنع هالة من حولي كانت تزداد وتكبر يوماً بعد يوم حتى حانت لحظة لقاء أمير البلاد بسبب كل هذا الزخم والكلام المتناثر الذي يبدو أن جزءاً منه قد وصل إلى البلاط.

كان كل شيء من المقرر أن يسير في طريقه المرسوم له ولكن...

ولكن، ويا للأسف الشديد، فقد قادتني كلمات بكر هذه شيئاً فشيئاً إلى بلاط الأمير زيادة الله بن الأغلب. لا ريب في أنه قد وصله

نثار من كلمات من هنا أو هناك قيلت عن هذا الرجل القادم من بغداد، والذي يسير في مدينة القيروان والعباسية والأنظار تحيط به من كل جانب وتقام الولائم الباذخة على شرفه في كل يوم تقريباً.

كنت أدرك أن مسألة لقائي بزيادة الله الأغلبي قادمة لا محالة، لا لغرور مني ولكن لأنني قُدمت إلى وجهاء هذه المدينة بنحو مبالغ فيه، كما أنني رجل قادم من بغداد عاصمة الخلافة، والتي كانت على علاقة شبه متوترة مع القيروان بعد أن اعتلى الأمير زيادة الله بن الأغلب كرسي عرشها وحكمها بطريقة تبدو مريبة وتثير شك الخليفة في بغداد ومخاوفه.

كنت أتوقع لحظة اللقاء مع أميرها، ولكنني على كل حال لم أتوقع أن تأتي بمثل هذه السرعة وبهذه الطريقة.

٣٢

انتقلت مع مضيفي بكر الباجي من بيت إلى بيت ومن مأدبة إلى مأدبة حتى أحصيت حوالى خمس عشرة دعوة أقيمت على شرفي في بيت تاجر كبير أو رجل مهم أو غير مهم في البلاط أو في بيت رجل من الأعيان أو الوجهاء.

كانت دعوات وولائم يتحدّث الناس بها كثيراً في الأسواق وعلى المصاطب التي يجلس عليها أرباب الدكاكين وتكون أمام الحوانيت الكثيرة والمنتشرة وعلى أبواب الجوامع بعد انقضاء الصلوات وفي المجالس الخاصة التي يتسقّط أخبارها أولاً بأول بكر الباجي بكل شغف.

كانت زوجتي صفية قد أسرّت إليّ بخبر أسعدني، إذ قالت لي بعد لحظة حميمة جمعتني بها على الفراش وعلى استحياء إن طمثها قد انقطع منذ ثلاثة أشهر وإنها قد تكون حاملاً.

لم تسعني الفرحة، فتناولت يدها اليمنى وطبعت قبلة حارة وطويلة عليها.

واعتبرت ذاك فألاً حسناً، وأن الأيام ربما تبتسم لي في مدينتي

الجديدة رغم أن مخاوفي لم تفارقني بل كانت تعنّ لي بين حين وآخر.

ولا أعرف كيف وصل خبر حمل زوجتي إلى مضيفي الكريم وإلى زوجته، ولكنه على كل حال فاجأني يوماً بقوله:

– إن المكوث يا صديقي في الخان لا يناسبك منذ اليوم، فأنت وزوجك المصون تنتظران مولوداً جعله الله من مواليد السعادة مقدماً، وفي هذه الحالة يلزمك منزل مستقل وكذلك خادمة تهتم بشؤون البيت ريثما تلد زوجتك بإذن المولى.

وقادني هذا الرجل الكريم الصافي السريرة إلى بيت صغير ولكنه جميل بنوافذه وألوانه وأبوابه الخشبية المطعّمة بالفسيفساء، وحينما دلفت إلى البيت بمعيّة مضيفي الباجي فوجئت بفتاة سمراء اللون تقف مبتسمة في باحة الدار، وأشار مضيفي إليها وقال لي:

– مرجانة. هذا هو اسمها. إنها خادمتكم من التو واللحظة، وسوف تكون نِعم العون لك أنت وزوجتك.

أصابتني الدهشة فخرس لساني وشعرت بامتنان يغمرني من رأسي حتى قدمي لهذا الرجل الذي أسرني بكرمه وأريحيته وصدق مشاعره. كدت أبكي من التأثر، فالتفتّ نحوه و لم أشعر بنفسي إلا وأنا أحتضنه صامتاً وعاجزاً عن الكلام.

كانت أيامي تسير بهناء في القيروان، وشعرت براحة كبيرة بعد أن حصلنا على بيت يؤوينا أنا وزوجتي وولديّ وابنتي حمدونة، فأصبحت حياتنا تسير بهدوء كنت خلالها أرقب بطن زوجتي يتكوّر شهراً بعد شهر، وكنت أيضاً أداعب عودي وأوتاره، والذي هجرته كثيراً في خضم هذه الأحداث المتوالية التي أبعدتني قسراً عنه.

وصفا لي الزمان قليلاً أو كاد، فغنّيت لصديقي الباجي ولأصدقاء مقرّبين كانت تجمعنا خلالها ليالي أنس وفرح. ماذا أقدم لهذا الرجل الكريم الذي أسبغ عليّ كرمه وعطفه غير أن أمنحه ما أتقنه في هذا العالم، غير أن أغني له وأجعله يتراقص ويتمايل طرباً وأنسيه هموماً ربما أخفاها عني تبسّمه في وجهي كلما رآني أسير هنا أو هناك.

ولا أنسى قوله لي ذات ليلة وقد استخفّ به الطرب فقال:

- إن غناءك يا صديقي لا يليق إلا بالملوك والسلاطين والأمراء.

- بل يليق بك أنت وحدك يا صديقي.

هكذا وجدت نفسي أقول له صادقاً والكلمات تنبع من صدري حارة صادقة.

ولكنّ بكراً طلب مني أن يكون غنائي لبعض الصفوة من الأصدقاء وألا يخرج إلى العلن، وعندما سألته عن سبب ذلك قال لي:

- يبدو أنك كثير النسيان يا صديقي. إنها القيروان كما أخبرتك سلفاً، فلا تنسَ ذلك.

وهززت رأسي مفكّراً في ما قاله لي.

ماذا يعني كل هذا؟

وبدأ شيء ما يتسرّب إلى نفسي ويؤدي إلى انقباض في قلبي، وشعور بعدم الراحة يعتريني ويشغلني كثيراً.

وذات مساء سمعت لُجّة وصخباً عظيماً آتياً من وسط المدينة، فخرجت من بيتي مستطلعاً الأمر. مشيت إلى السوق الكبير، فوجدت هرجاً ومرجاً عظيمين وجنوداً كثراً يمسكون بسيوفهم وآخرين برماحهم وفؤوسهم وهم يصخبون، وفي مقدمتهم رجل

ممسك بطبلة معلّقة بحبال من الجلد على كتفيه ويصيح بأعلى صوته:

– أيها الناس... أيها الناس... اسمعوا وعوا. لقد تمّ بحمد الله قطع دابر الفساد والعناد، فجيوش مولانا السلطان زيادة الله بن الأغلب نصره الله قد أخمدت ثورة العصيان وقضت عليها في مهدها، وقتل مدبرها وصاحبها ابن الصقلبية الملعون، ومات مدحوراً بفضل الله ثم بفضل بسالة جيشنا العظيم.

أيها الناس... أيها الناس...

ومضى الرجل يصيح بأعلى صوته في موكب عظيم انضمّ إليه الرجال والنساء والأطفال، وأغلقت الحوانيت وترك الرجال أعمالهم وساروا وراءه يصيحون ويزعقون فرحين بالنصر المؤزّر على عدوّهم.

ولمحت صديقي بكر الباجي ضمن الحشد يصيح بأعلى صوته على ضوء المشاعل:

– الله أكبر... الله أكبر ظهر الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً.

استمرت الاحتفالات بالنصر المبين ثلاثة أيام لم تكن المدينة تهدأ فيها إلا قليلاً.

وفي أول جمعة بعد النصر، رأيت بعد انقضاء صلاة الجمعة في جامع عقبة بن نافع موكباً عظيماً أعظم من الموكب الذي حدث منذ أيام. كان الناس يمشون ويسلمون على رجل شاب أبلج الوجه خفيف اللحية حوله جنود مدجّجون بالسلاح، عرفت في ما بعد أنه حاكم القيروان الأمير زيادة الله بن الأغلب.

كان الناس يسيرون من أمامه ومن خلفه وعلى يمينه وشماله

ويستبسل الجنود في صدّ الناس عن الوصول إليه، وهو يرفع يده محيّياً وعلى وجهه ارتسمت ابتسامة صغيرة. ومرّ الموكب الكبير، فاخترق المدينة حتى وصل إلى خارج أسوارها حيث نُصب صيوان هائل الحجم جلس في وسطه الأمير وحوله قادته وجنوده، بينما اصطفّ الشعب عن اليمين والشمال، وفي الوسط كانت هناك ساحة كبيرة امتلأت بالجنود وهم يستعرضون فنون مهاراتهم القتالية أمام الأمير وشعبه، وسط تهليل وتكبير ضجّ بهما المكان في كل حين. ثم في نهاية النهار امتدّ سماط كبير نثرت فوقه الأطعمة بمختلف أنواعها والذبائح بكاملها، فأكل الجميع منه في جوٍّ احتفالي كبير لم أرَ مثله سوى في مدينتي القديمة والبعيدة بغداد إبان دخول الخليفة المأمون إليها قادماً من خراسان.

وعادت أيامي إلى وتيرتها السابقة تسير بهدوء ورتابة حتى ذلك اليوم الذي اقترب فيه مني أنا وبكر الباجي، ذات أصيل، رجل يمتطي جواداً، وعلى يمينه ويساره يسير رجلان بيد كل واحد منهما رمح طويل، ويتدلى من خصريهما سيفان. كنت أنا وبكر الباجي حينها نتناول عنباً وتيناً من طبق كبير ونحن جالسان على مدخل الخان الكبير، وما إن لمحهما مضيفي حتى نهض من مكانه مرحّباً فاتحاً ذراعيه وهو يقول بمرح بدا لي مصطنعاً:

– مرحباً بأبي يعقوب.

ولكن الرجل لم يُبدِ أي إشارة بقبوله لترحيب بكر، بل مال قليلاً من فوق حصانه وهمس في أذنه بكلمات بدت لي أقصر من المألوف، قبل أن يلوي عنق حصانه ويغادر، بعد أن حدجني بنظرة خاطفة بلغت

شأواً كبيراً في أعماقي، فارتبكت منها وتململت قليلاً في جلستي.

اقترب مني بكر جذلاً وسعيداً وهو لا يزال فاتحاً ذراعيه:

– هل عرفت يا صديقي من هذا الرجل الذي كان هنا منذ قليل...

وقبل أن أجيب بعدم معرفتي به، كان قد سبقني بالقول:

– إنه أبو يعقوب حاجب الأمير الأغلبي زيادة الله أمدّ الله في عمره.

واستعاد أنفاسه المتلاحقة قبل أن يقول:

– وقد جاء بدعوة لك ولي بالطبع للحضور إلى بلاط الأمير في يوم الغد. ما رأيك يا صديقي؟

لم أجب.

كانت هناك أفكار كثيرة تلوب في رأسي؛ أفكار تتشابك وتتدافع إلى درجة لم أستطع معها أن أمسك بفكرة وجيهة ومنطقية واحدة.

٣٣

نعم هو الوجه ذاته الذي رأيته يوم الاحتفال الكبير بالنصر على ابن الصقلبية في باجه. لكنه اليوم بدا لي وجهاً غريباً؛ وجه تملأه الصرامة والجدّية وشيء من غضب.

الأمير زيادة الله بن الأغلب الوالي الذي يحمل الرقم ثلاثة في بيت بني الأغلب وحاكم القيروان القوي.

دخلت إلى البلاط الفخم بخطوات ثابتة وقد استمددت ذلك الثبات من خلال السمعة القوّية التي سبقت دخولي إلى هنا. رجل من بغداد كان نديماً لخلفائها وقد جاء إلى القيروان.

وجاء معي مضيفي بكر الباجي، ولكن الحُجّاب منعوه من الدخول فدخلت وحدي.

وأنا أخطو نحو الوالي، لمحت شيئاً غريباً لفت نظري رغماً عني، حيث إن جلّ الوجوه التي شاهدتها كانت وجوهاً يغلب عليها الوجوم والغضب. وجوه تتدلى منها لحى كثّة شعثاء وأقرب إلى التشويه.

كانت القاعة الفخمة تعلوها قبة عالية ومزينة بأحجار صغيرة ملوّنة تسمى الزليج، وتقوم على أعمدة واسطوانات رفيعة مزينة بكتابات

من الخط العربي لآيات كريمة من القرآن الكريم. حرصت عندما أزف الوقت النهائي لمقابلة الأمير على أن أرتدي أفخم ثيابي واعتمرت عمامة سوداء اللون فيها خطان مقصبان ذهبيان، ومسحت على وجهي وصدري بمسك مخلوط بعنبر أهدانيه صديقي بكر في يوم عيد الأضحى الفائت.

وما إن أصبحت قُبالة الأمير الذي كان في هذه اللحظة يحادث رجلاً ممسكاً بيديه رقعة من جلد يقرأ منها شيئاً بصوت خفيض، وشعر الأمير بمثولي أمامه، التفت إليّ وأشار بيده إلى ذلك الرجل فابتعد طاوياً رقعته...

توقفت أمامه تماماً فحيّيته فردّ تحيتي باقتضاب وقال لي:

– مرحباً بك في القيروان. لقد سمعت عنك كثيراً من رجالي في الأيام السابقة.

ثم بعد لحظات قال لي مستدركاً:

– من أنت؟

أجبت بهدوء:

– خادمكم أبو الحسن علي بن نافع.

صمت مفكّراً قليلاً ثم قال:

– وكيف هو مولانا في بغداد؟

لم أجب. ماذا أقول وأنا قد خرجت طريداً وحيداً شريداً، ففضّلت الصمت، ولكنه كان يطاردني بأسئلته وبنظرة عينيه الحادتين:

– قل لي أي ريح طيبة جاءت بك إلى بلاد القيروان؟

قلت بصوت خافت وقد فوجئت بهذا النوع من الأسئلة التي تشبه

الاستجواب وليس السؤال عن الحال:

– حكايتي شرحها يطول يا مولاي، ولكنني أعتبر نفسي سائحاً في أرض الله أنشد إلى جانب الراحة والسكينة والهدوء العلم والمعرفة أيضاً.

وتوقفت تماماً عن الحديث وخانتني الكلمات، أنا الذي أحسن صنعها ورصفها واللعب بها تخونني في آخر لحظة.

وتيبّست الحروف والآهات في سقف حلقي حيث انثالت كل الصور القديمة أمامي واندفعت إلى الخارج لتكون متجسّدة أمام عيني.

لجمني الماضي المؤلم الذي عشت كل تفاصيله بحلوها ومرّها والذي انداح أمامي فجأة عن الكلام ومن دون أن يخفي حتى التفاصيل الدقيقة والصغيرة.

وطال صمتي أو هكذا بدا لي.

ثم جاء إنقاذي من محنتي بصوت ارتفع من خلفي.

– مولاي إن قادة الجيش في انتظار قدومكم في الصيوان.

كان ذاك صوت أحد قادته، الذي كان غاطساً بجسده في عتاده من فوق إلى أسفل.

حمدت الله كثيراً في سرّي، حيث إنني لم أعد مجبوراً على سرد قصة حزينة أمام وجوه غريبة لا يهمها أن تستمع إلى قصص من هذا النوع أو حتى الإنصات إلى رجل مثلي غريب وقادم من مكان ناء وبعيد.

وأشار بيده نحو الحاجب قائلاً:

– فليأتِ هذا الرجل في المساء إلى مجلسنا الخاص في القصر الأبيض. أكرموه وبالغوا في إكرامه فهو من اللحظة ضيفي.

كانت لفتة كريمة منه لم أتوقعها.

والتفت نحوي قائلاً وطيف ابتسامة يلوح على وجهه...

- عذراً، ومرحباً بك مرة أخرى في أرض القيروان، وسنراك بإذن الله مساء اليوم، فكن على أهبة الاستعداد ريثما أرسل إليك من يحضرك إلى مجلسي الخاص.

كان لقاءً جاء أقصر ممّا كنت أتوقع، وانتهى بألطف ما كنت أتوقع، وجاءت أسئلته على غير ما كنت أتوقّع أيضاً.

لشدّ ما كنت أحتاج في هذه اللحظات إلى رجل يأخذ بيدي ويدلّني على فعل الصواب.

ولكنني كنت رجلاً وحيداً أصارع أفكاراً وتوجسات تتعارك في داخلي بلا حول مني ولا قوة ولا أستطيع السيطرة عليها إلا بشق النفس...

ما أشبه الليلة بالبارحة.

وتذكرت رحلتي الليلية الطويلة تلك التي قطعت فيها بغداد مع سيدي القديم إسحاق الموصلي إلى بلاط هارون الرشيد، وها هي الأيام تدور وتدور وكأنها تسير بحركة دائرية الشكل لتعود إلى نقطة البداية نفسها دائماً.

وطيلة طريق العودة إلى المنزل كان بكر الباجي يسألني عشرات الأسئلة عن ذلك اللقاء بالأمير:

- ماذا قال لك تحديداً؟ هل تحدث كثيراً أم باقتضاب؟ ماذا فعلت أنت؟ هل حدثته عني؟ هل... وهل...

ولا مندوحة من القول إن بكر الباجي قد أشاع أمر هذه الزيارة في

كل أنحاء القيروان، ولا شك لدي في أن تفاصيلها قد وصلت إلى كل بيت من بيوت المدينة. كان سعيداً وكنت متخوّفاً. أشعر بعدم ارتياح لأنها تذكّرني بالزيارة القديمة إلى بلاط الرشيد، التي انتهت بتلك النهاية المأساوية، و لم أجنِ منها سوى التأنيب والحقد ومن ثم الطرد والنفي.

ومهما يكن من أمر، فلا بد أن أستعد للحضور مرة أخرى أمام هذا الوالي في مجلسه الذي سمّاه المجلس الخاص، ولا أعرف كيف سيكون ذلك ومتى سيكون؟

لبثت في بيتي منتظراً وأنا على أهبة الاستعداد، ثم حانت مني التفاتة إلى عودي فأمسكت به وتحسّست أوتاره. كنت في حيرة من أمري هل سأصحبه معي أم أدعه هنا؟

ماذا أتقن سوى الغناء؟ هي بضاعتي ولا أدري إن كانت في هذا المكان الشحيح الفرح بضاعة مزجاة أو غير ذلك؟

وحلّ المساء وأنا في حالة انتظار حتى اقترب منتصف الليل وشعرت باليأس ينتابني، وقلت لنفسي ربما قد صرف النظر عن لقائي أو أنني نُسيت في زحمة الانشغال بأمور أخرى أكثر أهمية لديه مني.

كانت فكرة تغادرني لتحل محلها فكرة أخرى عندما سمعت طرقاً على الباب، فقمت وفتحت الباب ووجدت أمامي ذاك الرجل المتجهم الوجه نفسه، الذي سبق أن التقيت به أمام حانوت صديقي بكر...

قال لي بصوت أجش:

– الأمير زيادة الله في انتظارك، هيّا فلنذهب معاً.

ووجدت في الخارج ثلاثه رجال يمتطون أحصنة وكان من بينها جواد شاغر مسرج طلبوا مني أن أمتطيه، فركبته وبدأت الرحلة.

كانت الظلمة تكتنف المدينة التي تنام باكراً، بينما لم يسمع في هذه اللحظات سوى وقع حوافر الجياد على الأرض. هدوء لم يسبق أن رأيت مثله من قبل. اخترقنا المدينة الصغيرة المساحة من المنتصف وتجاوزنا بوابة ضخمة في السور وخرجنا إلى خارج المدينة الغافية، وابتلعتنا العتمة ونحن سائرون نحو مدينة العباسية وإلى القصر الأبيض حيث مقرّ الوالي زيادة الله بن الأغلب.

٣٤

أظهر لي الأمير زيادة الله في مجلسه الخاص في القصر الأبيض وجهاً مغايراً لما رأيته منه أمام رجال دولته. أزاح عن كاهله مؤونة التحفّظ في الحديث وفي الحركات والإيماءات والضحك بملء الفم. كان يبدو رجلاً عادياً ولطيفاً في آن واحد. وابتسم ابتسامة عريضة عندما قلت له إنني أحسن الغناء وهو في الواقع صنعتي الوحيدة التي أجيدها. وطلب مني أن أسمعه شيئاً ممّا لدي، فأسمعته، فرأيته لدهشتي يصفق بيديه ويُطرب طرباً شديداً، وعندما لاحظ استغرابي من ذلك قال لي ضاحكاً:

– ألم تسمع أو تقرأ أن العرب قد قالت لا يُطرَب إلا الكريم من الناس.

وانقضت تلك الليلة على أحسن ما يرام، وبالطبع لحقتها ليالٍ أخر كثيرة. وفي كل ليلة كنت أكتشف مزيداً من الأسرار تجاه هذا الرجل الغامض بالنسبة إلي. كان متوحشاً ودموياً في بلاطه وبين رجاله وقادته، وهنا في مجلس الطرب يبدو رجلاً وادعاً؛ رجلاً قد تصادفه في درب أو زقاق وتتبادل معه الحديث بلا أدنى تردد.

واكتشفت أنه كان لا يدعو إلى مجلسه هذا سوى أصدقائه المقربين الذين يرتاح في الحديث معهم ويكون على سجيته بين أيديهم. كانوا

رجالاً لم تسبق لي رؤيتهم في البلاط يوماً، بل في القيروان كلها.

كانوا مثله غامضين، وحولهم ضباب كثيف، ولا يراهم الرائي إلا عندما يرخي الظلام سدوله على المدينة.

نصف عام مضى سريعاً.

كنت في خلال أيامه وشهوره الستة نديماً وجليساً لهذا الأمير. ولكن من جهة أخرى أوصل بكر الباجي إلى مسامعي أن هناك من هو غير راضٍ عن هذه الصداقة الوليدة الناشئة بين هذا القادم من بغداد وبين أمير البلاد. وحينما طلبت منه مزيداً من الإيضاح قال لي واجماً:

– إن قاضي المدينة ومجلس علمائها يرون في غنائي للأمير شؤماً على بلادهم وتقويضاً للدين وصرفاً لأنظار الناس عمّا هو أهم: الجهاد.

الجهاد!!

وضحكت ملء في.

يا لها من كلمات مسمومة إذا قيلت في غير محلها.

وقلت لصاحبي إنني لا أحفل بهم ولا بما يعتقدونه عن شخصي. ولا أعتقد أن منادمتي للأمير سوف تمنعه عن الجهاد إذا أراد ذلك...

إنما هو الحسد يا صديقي ولا شيء سواه. ولا أشك في أنه هو الداء ذاته، الحسد الذي أخرجني من بغداد لكي أكون هنا اليوم وربما سأكون في مكان آخر في يوم غد.

انطفأت ضحكات بكر الباجي وغادرته تلك الخفة في الحديث وفي التعامل السريع والخفيف مع الناس وأصبح شاحباً مهموماً يقيس كلماته قبل أن يتحدث بها.

ووضعت زوجتي بنتاً جميلة وقالت إنها قررت أن تسميها "عُليّة"

تيمّناً باسم زوجة صديقي بكر الباجي الذي تلقّى هذا الخبر بابتسامة مقتضبة غير معهودة عنه. هزّ رأسه وشكرني ثم غادر المكان مهموماً ساهماً راكزاً بصره إلى الأرض.

لقد تغيّر صديقي بالفعل. تغيّر عندما أرخى سمعه للناس وتركهم برّهم وفاجرهم يتلاعبون به يميناً وشمالاً.

وعندما كاشفته بذلك التغيّر وبأنني لا أجده يليق به وهو رجل قد عركته الأيام والسنون ورأى منها القبيح والجميل، لم يأبه بكلماتي تلك وقال لي:

– إني أخاف عليك يا صديقي، فأنت لا تعرف أهل القيروان.

– أهل القيروان؟ هكذا دفعة واحدة؟

– أخاف عليك أكثر من أنصاف المتدينين المتمسكين بالقشور من دون اللب ولا أخاف عليك من العلماء الحقيقيين فيها.

– وأين هم علماؤها الحقيقيون؟

ابتسم بمرارة ثم قال:

– لقد ترك العلماء الحقيقيون الزاهدون الساحة لهؤلاء الأنصاف، وانكفأوا هم في صوامعهم يتعبّدون ويؤلّفون الكتب.

ثم تنهّد بملء صدره.

لم يكن يخوّفني برجال، بل كان يخوّفني بمدينة بكاملها.

حاولت أن أقول له إنه ما دام أمير البلاد راضٍ عني وعمّا أفعله فلا يوجد أي داعٍ للخوف، فالناس على دين ملوكهم.

ولكنه ظلّ غير مقتنع.

وأنا ماذا يهمني؟

إذا كان يجب علي الرحيل فسأرحل. إنما أرض أفريقيا كانت

وستكون بالنسبة إليّ مجرد ساعة راحة مسافر يرتاح فيها قليلاً من نصب السفر قبل أن يستأنف المسير إلى وجهته النهائية. ووطّنت نفسي على هذا الرأي، فشعرت بالراحة لأول مرة منذ أن وطئت قدماي أرض القيروان.

وبالفعل، فقد حدث ما توقعه صديقي بكر الباجي. كان معه الحق كل الحق في أنني لم ولن أعرف كيف يفكر الناس في هذه المدينة العجيبة التي تخفي مسرّاتها عن العيون في انتظار حلول المساء لتستمتع بها أيّما استمتاع، بينما تكون متجهّمة الوجه في رابعة النهار.

إنني أقول ذلك يقيناً لأنني تعرّفت إلى معظم وجهائها وكبرائها وتجارها وقادتها، ودخلت بيوتهم ونادمتهم وغنّيت لهم ووجدتهم يعشقون الحياة، ولكنهم حريصون على إخفاء ذلك عن عامة الناس، وكأن سلاسة الحياة ودعتها ورخاءها عيب وعار يستحق أن يدفن تحت الثرى فلا تراه العيون.

ولكني لم أفعل خطأً يستوجب مني أن أتوقف وأعترف بذنب لم أقترفه.

ظلت علاقتي بالأمير زيادة الله على حالها لم تتغير، ولكنني تأهّبت سرّاً لحدوث أي انقلاب في هذه العلاقة. لقد تعلّمت كثيراً في السنوات الماضية. كنت في حالة استنفار دائم لكي لا تكون الصدمات مميتة وقاتلة. ووطّنت نفسي مرة أخرى على الرحيل عندما يكون هو الحلّ الأخير والوحيد والأسلم أيضاً.

ظللنا نلتقي في مجلسه الخاص الذي نستمتع فيه بالحياة ما دام استمتاعنا ذاك لا يضرّ شخصاً بعينه أو يسبّب لفرد أو جماعة أو معتقد الألم والضرر.

وقد يصدف أحياناً أن أكون في ديوان الأمير في النهار فأتمعّن في

الوجوه، وخصوصاً في من يسمّون بالعلماء ورجال الدين، فأرى نظراتهم ترقبني والعيون تكاد تلتهمني حيّاً وقد صدر منها ذاك البريق المخيف، فأصرف وجهي إلى الجهة الأخرى غير مبال.

ومع مرور الأيام أصبحت الحالة تسوء أكثر فأكثر.

ففي أحد الأيام أدّيت صلاة الجمعة في جامع عقبة بن نافع، وأكاد الآن أقسم ان خطبة الجمعة كانت كلها تقصدني بلا مواربة، حيث أطال الإمام في أوّلها عن الحثّ على الجهاد "وأن من أشد مثبطات هذا الأمر الكبير والعظيم هو الاستماع إلى الغناء والمغنين، وأن الأمة تُذل إذا كانت المعازف والغناء ديدنها وارتضت بها بديلاً ممّا في يدي الله".

كانت خطبة تحريضية بالفعل، وشعرت بكثير من النظرات المختلسة تخترق جلدي لترتطم بعظامي، وحانت مني التفاتة إلى صديقي بكر الباجي فوجدته يكاد يبكي من الغضب والغيظ وربما الخوف.

وكدت أسأل هذا الإمام الموتور:

– ليتني أعرف كيف يؤثر الغناء في مدى تقوى الرجل وإيمانه؟

إن الله سبحانه قد خلق الناس مخيرين لا مسيرين، فهذا طريق الخير وذلك طريق الشر وكلّ يختار طريقه حسبما يريد، حتى تحين ساعة الحساب ليكون كل فرد مسؤولاً عن اختياره ويُحاسب ويُعاقب على ذلك الاختيار.

وخرجت من الجامع ويداي ترتعشان من فرط الانفعال والغضب، ولكني فضّلت الصمت تجاه هذه الوجوه الغاضبة التي تحتاج إلى سبب بسيط لكي تثور ثائرتها ويحدث ما لا تحمد عقباه.

وكاد صديقي بكر الباجي يتعارك مع رجل أحمق بدا شديد الغضب ومتأثراً بتلك الخطبة الملتهبة لولا أن أمسكت بيده وجررته

جرّاً إلى بيته وهو يتميز من الغيظ.

واحتطت للأمر، وبدأت جدّياً أفكر في خطوتي القادمة. ولاحت لي أرض الأندلس مرة أخرى. كانت هي أرض المقصد الأخير، ففيها إما أكون أو لا أكون.

وشرعت في كتابة خطاب مطوّل لأميرها عبد الرحمن بن الحكم أخبره بمن أكون وما إذا كان يرحّب بمجيئي إلى بلاده وأقدم بين يديه ما يرضيه عني.

وقررت إرسال الرسالة وأنا غير متيقّن من أنني سأحوز يوماً ما جواباً، ولكنها كانت محاولة على كل حال.

وطلبت من بكر الباجي أن يُرسل هذا الخطاب بمعرفته، لأنني لو أرسلته أنا فلربما تعرّض للمصادرة والإخفاء أو الفهم الخاطئ.

أرسل صديقي بكر الرسالة مع تاجر قرطبي يبيع ويشتري في صناعة الجلود، وهو أحد زبائنه الدائمين كما قال لي.

ولبثت أنتظر الجواب.

ولم أخبر بكر الباجي بفحوى الرسالة حتى لا أسبّب له تعاسة فوق ما يشعر به من تعاسة، فقررت كتمان الأمر حتى تحين الفرصة المناسبة لأكاشفه بكل شيء في الوقت المناسب.

وعدت إلى سالف عهدي نديماً ومغنياً لأمير القيروان، وصممت أذني عن كل ما يقال في شخصي، واستمرت علاقتي الطيبة بالأمير الشاب حتى... حتى...

جاء ذلك الخطاب من بغداد فغيّر كل شيء وقلب الأمور رأساً على عقب.

٣٥

كان خطاباً متسرّعاً من الخليفة المأمون يأمر فيه واليه على أفريقيا زيادة الله بن الأغلب أن يدين بفروض الولاء والطاعة لوالي مصر عبدالله بن طاهر، وأن يدعو له في خطب الجمعة ويسلمه خراج أفريقيا كاملاً غير منقوص.

أي سفاهة وقلّة عقل هذه؟

ألا يوجد لهذا الرجل مستشارون يقدمون له النصائح التي تضمن له استقرار الأوضاع في هذا القطر النائي والبعيد عن مركز الخلافة.

ومن هو والي مصر الذي يدعو الخليفة إلى الدعاء له على المنابر؟

إنه أضعف رجل في أرض الإسلام حالياً. عبدالله بن طاهر بن الحسين الذي لم يستطع ضبط الأمور في أرض مصر حتى يومنا هذا. في مصر، ومنذ الفتح حتى الساعة، يتغير وُلاتها بعد شهور فقط، وربما يمر عام واحد يكون في خلالها قد وُلِّي عليها ثلاثة أو أربعة ولاة!

يبدو أن المأمون لا يقرأ تاريخ مصر جيداً.

ألا يعلم الخليفة في بغداد أن الأمير الأغلبي قد انتشى وتعاظم أمره بعد نجاحه في إخماد الثورة تلو الأخرى في أرض أفريقيا كلها، وكان

آخرها ثورة ابن الصقلبية الرجل القوي والمشاكس الشديد المراس، بل وجعل حاكم جزيرة صقلية الروماني يرتعد فوق عرشه خوفاً وفرقاً منه.

وكان جواب الأمير الأغلبي على رسول الخليفة صرّة من مال رماها في وجهه وقال له:

– إن الخليفة يأمرني بالدعاء لعبد خزاعة. والله لا يكون هذا وفيّ عرق تجري فيه قطرة دم واحدة. خذ هذه الصُّرة واذهب بها إلى مولاك وأعطه إياها، وقل له هذا هو جوابي على طلبه.

كان جواباً حاسماً ومربكاً في آن واحد، وفيه جُرأة مفرطة من هذا الحاكم تجاه خليفة المسلمين في بغداد.

وقد نقل لي أحد رجال البلاط، وكان أحد أصدقائي الذين يخفون الودّ نحوي في حضور الآخرين ويعلنونه في غيابهم:

– هذه الصّرة من المال التي سلمها الأمير إلى رسول الخليفة فيها دنانير مضروبة باسم أمراء الأدارسة في المغرب.

وما من شك في أن المعنى لا يخفى من هذه الرسالة الوجيزة والقوية والصريحة في آن واحد:

"أيها الخليفة الزم مكانك وإلا تحالفت مع أعدائك الأدارسة في بلاد المغرب الأقصى".

ويا لها من رسالة موجعة!!

وساءت الأمور بالنسبة إلي، فقد ازداد عداء الناس الملتحين لي، وأقول الملتحين لأنهم لا يعرفون من الدين إلا رسمه وشكله ومظهره الخارجي فقط، بل وطلبوا من جيراني الذين ينتمون إلى توجههم نفسه

أن ينتقلوا إلى بيوت أخرى بعيداً عن بيتي، والبعض من سكان المدينة سخر من كل هذه الأحداث ولكنه التزم الصمت و لم يجهر بالكلام أو بالفعل و لم يغيّر مكانه، بل لبثوا في بيوتهم يراقبون تلك الحرب المستعرة بين الفريقين، وانقسمت المدينة الصغيرة القليلة السكان إلى فسطاطين، قسم سكن في الحي الذي أسكن فيه، ولسخرية الأقدار فقد أطلقوا عليه الحي الزريابي، والحي الآخر أطلق عليه حي العُبّاد والزهّاد.

يا الله!

ألهذا الحدّ بلغت الأمور بي في هذه المدينة التي أصبح نصفها يتعاطف معي والنصف الآخر يناصبني العداء.

كانت سطوة من يسمون أنفسهم "رجال الدين" تفرض نفسها على البسطاء والرعاع من الناس، أما الشطر الثاني منهم فقد استخدموا عقولهم ووجدوا في الأمر مدعاة سخرية كبيرة، وقابلة للتندر والضحك.

كنت كلما ألتقي ببكر الباجي يقول لي وعيناه تبرقان:

– ألم أقل لك يا صديقي. إنك لا تعرف سكان هذه المدينة، إنهم قوم لا يلتزمون الحياد أبداً، فهم إما معك أو ضدك.

وجاءت توابع هذه الرسالة سريعاً.

فقد استوحش الأمير الأغلبي من الخليفة البعيد في بغداد، وبدأ يتأهب لأي أمر طارئ قد يصدر منه، وبالتالي قلّت لقاءاتنا في مجلسه الخاص في القصر الأبيض أو انعدمت كليّاً، فلم نعد نلتقي إلا لماماً.

وكان أكثر الناس فرحاً بذلك المستشارين وبعض رجال متشددين

اتخذوا الدين مطية لتحقيق مآربهم رغم أنهم لا يعرفون من الدين إلا مظاهره الخارجية ونسوا أو تناسوا عن عمد لبّه وجوهره.

كان معظم أعدائي من هؤلاء الذين يتسترون بعباءة التدين في سبيل استجداء المناصب أو الوجاهة لدى الناس.

كانوا أعداءً للفرح ولكل شيء يسعد القلوب ويخفف من مصابها. لقد جفّفوا منابع البهجة في هذه المدينة وجعلوا من أتباعهم يظهرون بوجهين؛ وجه النسّاك والزّهاد في حضرتهم ووجه سمح طليق يعبّ من نعيم الدنيا في الخفاء أو عند من يثقون بهم.

وزادت الأمور سوءاً على سوء.

فقد بدأ أولئك الحسّاد المتأسلمون الإيحاء للأمير بأنني مجرد دسيسة جاءت من أرض الخلافة إلى بلاط الأمير لكي أنقل ما يحدث هنا.

وقالوا له إن الخلفاء في بغداد لم يكونوا يطلبون الخراج من أرض أفريقيا من قبل، و لم يطلبوا يوماً ما أن يكون والي مصر حاكم هذه الأرض لولا... لولا... وجود هذا الشخص الأسود في بلاط الأمير.

وقد نقل هذا الكلام بالحرف الواحد بعض الأصدقاء في بلاط الخليفة، وقالوا لي إنه يجب أن أستعد لمغادرة القيروان في أي لحظة، فالأحداث قد بدأت تتعقد أكثر فأكثر.

وقد قاوم الأمير كل هذه الوشايات وأصمّ أذنيه، ولكنه مع مرور الوقت والدأب الذي لا يكلّ ولا يمل من الوشاة بدأ جديّاً يفكر في طردي، لا لجريرة ارتكبتها بل إرضاءً لهذا التيار الجارف من الضغوط الآتية من هؤلاء المتأسلمين المتسلقين بحبل الدين في سبيل مآرب

أخرى، لا خوفاً من أن أكون بالفعل جاسوساً للخليفة العباسي في بغداد.

إنني مجرد مغنٍّ لا أقل ولا أكثر، ولست عيناً لأحد ولن أكون كذلك يوماً ما، فهذا يتنافى مع طبعي وخلقي.

لم أكن أنتظر من الأمير سوى أن يطلب مني الخروج من القيروان بل وأرض أفريقيا كلها. كانت المسألة مسألة وقت مناسب ولقد جاء هذا الوقت المناسب.

ولقد جاءت هذه اللحظة في أسرع مما كنت أتوقع.

استدعاني الأمير الأغلبي ذات صباح للحضور إلى الديوان، فذهبت مرفوع الرأس غير خائف لأنني أعرف ما سيطلبه مني، وإذا قدّر لي الخروج من القيروان فسأخرج مرفوع الرأس وفي وضح النهار.

وحينما دلفت إلى الديوان الغاصّ بالقادة والمستشارين ورجال الدين سكت الجميع وكأن على رؤوسهم الطير. وقفت أمام الأمير "الصديق" وجهاً لوجه، فوجدته يقول لي بالحرف الواحد:

– إنني يا ابن السوداء أمنحك ثلاثة أيام لكي تغادر القيروان وإن وجدتك بعد هذه الثلاثة في أرض أفريقيا كلها فأنا في حِلّ من دمك.

وارتجّ المجلس بالتكبير والتهليل والدعاء بالنصرة للأمير على أعدائه.

لقد وصفني بالأسود هذا الأمير الذي كان يتمايل طرباً من غنائي ويقول لي في كل نوبة طرب:

– زدني.

لا أعلم حتى كتابة هذه الأسطر كيف تفوّهت بأبيات لعنترة العبسي لجمت كل من كان في هذا المجلس. لقد نبش هذا الأمير

ورجاله القساة القلوب جرحاً لم يندمل بعد.

فإن تك أمــي غرابيــــة من أبناء حام بها عبتني
فإني لطيف ببيض الظبا وسمر العوالي إذا جئتني
ولولا فرارك يوم الوغى لقدتك في الحرب أو قدتني

ثم قلت بعدها بهدوء وأنا أنظر إلى كل واحد منهم...
- أنا رجل حُر. دخلت هذه البلاد كرجل حر ولست عبداً لأحد ولن أكون بعد اليوم.
كنت أريد أن أقول كلاماً كثيراً كان محتقناً في صدري... ولكن...
لم يُسمح لي بالكلام مطلقاً بعد أن ألقيت بتلك الأبيات التي جعلت منها انتصاراً صغيراً لكبريائي المجروح، بل عوضاً عن ذاك أمسك بي جنديان أحدهما على يساري والآخر على يميني وجروني جرّاً إلى خارج الديوان. كنت أثناء خروجي مخفوراً أرى ابتسامات التشفّي تعلو الوجوه، والفرح لا يكاد يسع الصدور، بينما كنت في تلك الأثناء أفكر في طريقة للخروج من أقصر الطرق لكي أبتعد عن هذه الوجوه المتعطّشة إلى الولوغ في الدماء قبل فوات الأوان.

٣٦

جاءني بكر الباجي عشية يوم طردي من ديوان الأمير، والذي أصبح يوماً مشهوداً في القيروان، إذ اجتمع خلق كثير أثناء عودتي من العباسية في الساحات وفي الشوارع وعلى أفواه السكك ووقفوا على أبواب الحوانيت والبيوت وهم يهللون ويكبرون. ولولا أن كانت هناك ثلّة من الجنود جاؤوا بصحبتي لتوفير الحماية لي لاعتدى عليّ بعض الموتورين السفهاء منهم، ولكنّ الله سلّم.

جاءني بكر الباجي باكياً بصمت كما يبكي الرجال الحقيقيون. لم يكن بمفرده، بل جاء وبرفقته رجل يخفي وجهه بطرف عمامته فقدمه لي قائلاً:

- هذا "ليو" الذي تبحث عنه، وهو لم يعد اسمه ليو بل يدعى هارون السوسي.

أزاح الرجل طرف العمامة التي كان يخفي فيها وجهه عن الأنظار، فكدت أصيح من الدهشة، فقد كان يشبه صديقي ابن ماسويه في بغداد شبهاً لا يكاد يصدق.

حيّاني الرجل وقال بنبرة تخفي أسى وأسفاً:

– اعذرني يا سيدي إذ لم أكن هنا أثناء وجودك في القيروان، فإنني لم أعد من باجه إلا مساء أمس بعد البقاء فيها فترة طويلة للتأكد من نجاح إخماد الثورة هناك، ولقد أخبرني هذا الرجل الطيب أنك تبحث عني.

هززت رأسي وبحثت في صندوقي الخاص وانتزعت منه رسالة صديقي ابن ماسويه وسلمتها إليه، ففضّها على عجل وبدأ يقرأها وهو يهز رأسه، وما إن انتهى من قراءة الرسالة حتى ضرب براحة يده جبهته العريضة وقال لي:

– ماذا أقول لك يا سيدي. إنني في خجل منك لتقصيري في خدمتك.

توقف قبل أن يقول لي بحزم:

– إن الوقت غير مناسب لتبادل العتاب أو لتقديم الاعتذارات، وإنني منذ هذه اللحظة سأكون مسؤولاً عن سلامتك حتى تخرج من بلاد أفريقيا كلها سالماً.

ولم أجب. لزمت الصمت حتى استطال، قبل أن يقول لي هامساً:

– إلى أين تريد أن تذهب يا سيدي؟

– الأندلس.

هكذا أجبته بسرعة ومن دون تفكير.

استأنف ليو حديثه قائلاً:

– بحلول منتصف الليل سيأتي أحد رجالي ليصحبك إلى وادي "مرج الليل" في ظاهر المدينة، حيث سأكون هناك في انتظارك لكي أخرجك سالماً من هنا.

سأوافيك هناك فكن على الموعد.

أعاد ليو لثامه على وجهه ثم انصرف خارجاً وبقيت أنا وبكر الباجي كلانا يتحاشى النظر إلى وجه الآخر، فقد كانت لحظات عصيبة لا تحتمل الكلام.

لا أريد أن أحصي عدد القُبل والأحضان التي زرعها بكر الباجي في صدري وكتفي ورأسي. كانت دموعه تنهمر بغزارة، و لم أعد أفهم ما يقول من كلماته المتناثرة والمخلوطة بآهاته ولوعته، وبعد أن هدأ قليلاً قلت له:

- لا تبتئس يا صديقي، فهذا هو قدري ولا بد أن أسلّم به شئت أو أبيت.

و لم تكن تزده كلماتي إلا بكاءً ونحيباً، وتصاعد نشيجه وكدت أبكي لبكائه، ولكنني تماسكت بصعوبة وقلت له معزياً، ولا أدري أكنت أعزيه أو أعزّي نفسي:

- لن يكون هذا نهاية المطاف. سنلتقي يوماً ما، إنني أعدك بذلك.

وسمعنا معاً أنا وبكر بكاء "عُلية" زوجة بكر في إحدى الحجرات، كانت تجلس فيها برفقة زوجتي وسمعتها بعد قليل تنادي على ابنتي عُلية:

- تعالي يا ابنتي تعالي إليّ، دعيني أضمّك إلى صدري.

ثم تعالى البكاء بين المرأتين وازداد، ما حرّض صديقي على البكاء، حتى بدأت أشعر بالخوف على حاله، ولكن ماذا سأفعل، ربما أراحه البكاء، فتركته يبكي بينما مكثت أواسيه بكلمات جوفاء عاجزة.

ولبثنا كذلك إلى ما شاء الله. نصمت قليلاً ثم نبكي ثم نصمت.

وهدأ بكر الباجي قليلاً وران بيننا صمت طويل أو أنه استطال بسبب هذه اللحظات المفعمة بالشجن، قبل أن يقول لي بصوت مبحوح:

- نعم يا صديقي العزيز هو الفراق إذن.

- سنلتقي. أعدك بذلك.

كنت في هذه اللحظة أطلق العهود والوعود كشأن من يحاول تهدئة طفل يبكي على فراق أبيه الوشيك، ولكنها تظل وعوداً على كل حال.

وكانت كلمتي الأخيرة لهذا الصديق العزيز:

- إنني فور وصولي إلى الأندلس سأسطّر لك رسالة، وربما إذا رأفت بنا الأقدار وكانت لها كلمتها الفصل، فإنني سأزورك هنا وفي القيروان.

وودعني صديقي بكر دامعاً.

وحلّ منتصف الليل وخرجت بعائلتي سرّاً بعدما سمعت طرقاً على الباب ووجدت رجلاً معه رواحل وطلب مني على عجل الركوب وعائلتي.

كانت دروب القيروان وطرقاتها في تلك الساعة هادئة لا تكاد تسمع صوتاً إلا نباح كلب بعيد أو صياح ديك شعر بالفجر قبل أوانه ونحن نتدثر بالظلام والخوف. ها أنذا عدت إلى نقطة البداية. فرحيلي من بغداد كان في الساعة نفسها تقريباً منذ حوالى عامين ونيف. أخرج من هنا كلص متخفياً ومتوارياً عن الأنظار.

هل هذا هو قدري كما قلت لبكر الباجي؟ هل كُتب عليّ أن أكون في حالة ترحال دائم مصحوب بالخوف والآلام والأوجاع؟

ماذا فعلت ليحدث لي كل هذا؟

ما هي جريرتي وذنبي الكبير الذي اقترفت والذي يستوجب كل هذه العقوبات المؤلمة؟

وخرجنا من الباب نفسه الذي دخلت منه إلى القيروان لأول مرة منذ حوالى أربعة وعشرين شهراً من باب أبي الربيع...

وفي ظاهر المدينة كان هناك قمر في حالة الذبول والانطفاء وسماء مجلّلة بالسواد. التفتّ خلفي إلى المدينة الغافية للمرة الأخيرة. كانت ككتلة من الندم احتضنها الليل والخوف والطغيان، فنامت حزينة باكية. سرنا الهوينى حتى وصلنا إلى وادي "مرج الليل"، حيث وجدت ليو أو هارون السوسي في انتظاري مع مجموعة من رجال مسلحين، وهناك رسم هذا الرجل خط سيري للخروج بسلام من بلاد أفريقيا:

– ستذهب من فورك بصحبة هؤلاء الجنود إلى سوسة ثم إلى جزيرة جربه ومن هناك ستبحر إلى بلاد الأندلس.

وصافحني ليو بحرارة ثم قال:

– ربما لم أسعد بلقائك من قبل، ولكن ما يشفع لي أنني ربما أكون قد ظهرت أمامك في الوقت المناسب.

وتوقف قليلاً قبل أن يمتطي حصانه وحدثني قائلاً:

– لقد أمهلك الأمير ثلاثة أيام فلا تتلكّأ يا سيدي في سيرك، فهذا الأمير عندما أمهلك تلك المهلة فإنه يعني كل كلمة وكل حرف فيها... أظن أنك تفهم جيداً مقصدي يا سيدي.

ثم وثب على حصانه وانطلق نحو القيروان التي كانت لا تزال غارقة في نومها الطويل. كانت تبدو كامرأة نامت على جروحها متوشحة بالفقد والوحدة وليلها المخلوط بالأسى والحزن.

ومضت قافلتنا الصغيرة من فورها وبلا إبطاء إلى سوسة.

٣٧

كما خرجت من القيروان مثل اللصوص دخلت إلى سوسة هذه المرة كاللصوص...

كنت أدخل المدن كرجل عادي، كعابر سبيل مثل بقيّة خلق الله، وأخرج منها في نهاية الأمر متخفياً ومتوارياً عن العيون.

هل هذا ما هو مخطوط في اللوح المحفوظ؟

هل هذا هو قدري المكتوب؟

أن أكون طريداً في كل أرض وتحت كل سماء؟

ليتني أعرف. ماذا جنيت لكي أستحق مثل هذه العقوبة.

وسارت قافلتنا صوب سوسة تحملنا المطايا والطريق أمامنا يمتد كخيط من وهم وندم.

ووصلناها بعد نصف يوم من المسير.

لم نبقَ في سوسة إلا ساعات بقيت من النهار والليل. استرحنا فيها من وعثاء السفر قبل أن نركب مركباً صغيراً يخصّ تاجراً يهودياً من كبار تجار جزيرة جربه يدعى "ميمون". وأبحرنا مع صباح اليوم التالي، وأمضينا سحابة نهارنا الأول ونهارنا الثاني قبل أن ترسو سفينتنا

في الجزيرة مع بداية نزول الظلام.

قال لي أحد الرجال الذين جاؤوا برفقتي بتوصية من "ليو" إنني الآن في مأمن، فإذا أردت أن أتخفى في الجزيرة ريثما أتدبّر أمري بروّية وبلا استعجال، أو أن أنتقل إلى برقة إلى الجنوب تحديداً حيث قبائل البربر القوية لكي أكون بعيداً عن ملاحقة الأمير الأغلبي، وإن شئت أيضاً أن أبحر إلى مدينة روسبينا أو بنزرت لكي أنتقل بعدها عبر البحر إلى الأندلس.

كانت أمامي لأول مرة في طريق المنفى خيارات كثيرة، وقد اخترت الخيار الثالث. سوف أبحر إلى أرض الأندلس حيث كوّن أحفاد بني أمية دولة جعلت من ملوك بني العباس يرتعدون خوفاً وفرقاً منها.

لم نمكث في هذه الجزيرة الشحيحة الماء القليلة السكان إلا يوماً واحداً، استضافني فيه ذلك التاجر اليهودي في بيته الكبير والواسع، قبل أن نستأنف المسير في عرض البحر متوجهين إلى بلاد المغرب الأقصى.

كانت المسافة هذه المرة طويلة. كان يتعيّن علينا أن نسير أياماً تطول، قد تمتد إلى شهور في بحر هائج يدعى بحر الظلمات حتى نصل إلى مقصدنا الأبعد إلى الأندلس.

في ميناء "روسبينا" بدّلنا سفينتنا بسفينة أكبر حتى تكون قادرة على مواجهة أهوال بحر الظلمات، ومن هناك انطلقنا على بركة الله صوب المجهول.

نعم، صوب المجهول.

إنني لم أقل تلك الكلمة اعتباطاً، بل هذا شيء مؤكد. فالسائر في خضم هذا اليمّ يعتبر في عداد الأموات حتى يصل، وإذا وصل إلى البر عُدّ من الأحياء المحظوظين الذين كتب الله لهم عمراً جديداً، وكأن أمهاتهم ولدتهم من جديد.

و لم أكن حديث عهد بركوب البحر، فقد سبق لي أن أبحرت من الإسكندرية حتى سوسة، ولكن تلك الرحلة قد حالفها التوفيق بفضل الله سبحانه وتعالى. ولكن هنا، وبسبب هذا البحر وسمعته وشهرته التي طبقت الآفاق بعنفوانه وهيجانه وانتشار القراصنه فيه، لا أملك سوى الدعاء لكي أصل سالماً الى أرض بلاد المغرب الأقصى حيث تكون هناك الفرصة الأخيرة التي سوف أمنحها لنفسي ولطموحي. فإما النجاح وإما الهلاك. لقد تعبت. نعم تعبت من حمى الانتقال من هنا إلى هناك. أدخل البلاد مرفوع الرأس وأخرج منها حزيناً كسير النفس. يكفي كل هذا العذاب. لا بد أن أضع له حدّاً. فما مضى من العمر وما هو آتٍ لم يعد يطيق كل هذا العبث وكل هذا السوء.

وما من بد من القول إن زرياباً الذي كنته في بغداد وأرض القيروان لن يكون بعد اليوم زرياباً الذي يمتطي ظهر هذه السفينة الضخمة والمتوجهة إلى بلاد المغرب الأقصى ومن ثم إلى بلاد الأندلس حيث المقصد والمآل. لقد سلخت جلدي القديم وماتت البراءة في نفسي وأصبحت أنظر إلى كل شيء بمنظور فيه سواد كثير ويشي بقبح كبير. إنني لم أكن يوماً كما أكون الآن، فقد طفح الكيل ووطّنت النفس على أن أنظر إلى الأمور برؤية جديدة ومغايرة لكي أعيش ولكي أهدأ من

جنون الترحال ومن لؤم البشر الذي عانيت منه كثيراً.

يجب أن أضع حداً لكل هذا الاستبداد وهذا الظلم والطغيان الذي سجنني الآخرون فيه.

إنني مجرد رجل يريد أن يعيش بسلام وأن أكوّن عائلة أكبر مما لديّ الآن وأنجب الأطفال وأعيش كما يعيش الآخرون، ولكن هؤلاء "الآخرين" استكثروا عليّ كل هذا، وربما أنا سمحت لهم بأن يكونوا معي كذلك ولكن ليس بعد اليوم.

بمثل هذه الأفكار المتشنجة التي لازمتني طيلة شهر ونيف فقد حملتني السفينة حتى وصلنا ذات ضحى إلى مدينة "سبتة".

وبرسوّ السفينة تماماً حمدت الله تعالى على النجاة من هذا البحر المخيف العجاج والمتلاطم الأمواج والذي رأيت فيه أياماً سوداء سوف تبقى في ذاكرتي طويلاً.

كانت جبال "سبتة" تعانق البحر فلا توجد هنا أرض مستوية، وفوق جبالها الشمّاء ترى قلاعاً وحصوناً قديمة تطل على البحر من كل الجهات. ومن هناك أيضاً، في لحظات صفاء الجو، بإمكان الرائي أن يرى جبال الأندلس القريبة وقد اختلطت بزرقة المحيط ولون السماء. كانت سبتة صغيرة المساحة وسكانها قليلي العدد ولكنهم ودودون ومسالمون.

وكان أول عمل قمت به بعد رسوّنا في المرفأ وبعد أخذ قسط من الراحة هو إرسال رسالة إلى صديقي العزيز بكر الباجي. وقد سطرت له رسالة أخبره فيها بسلامة وصولنا إلى بلاد المغرب، وفي آخر الرسالة كتبت له كلمات صادقة شكرته فيها على كرمه وحسن ضيافته لي

في القيروان، راجياً من الله أن يمنّ علينا باللقاء مرة أخرى، وأودعت الرسالة تاجراً من القيروان يتاجر في الأقمشة وجدته يستعد للإبحار إلى سوسة بعد أسبوع كما قال لي.

وتوالت المفاجآت بعد قدومي إلى هذه المدينة.

ففي ميناء سبتة، وحينما كنت أسير هناك باحثاً عن سفينة تنقلني إلى الأندلس، التقيت برجل قال لي بين دهشي واستغرابي إنه مبعوث من أمير الأندلس الأمير عبد الرحمن بن الحكم إلي!!

قال لي:

– لقد وصلت رسالتك إلى الأمير عبد الرحمن بن الحكم ونحمد الله على سلامتك، وثقْ تماماً بأن هذا الأمير يقدّر من هم على شاكلتك.

كان كلاماً جميلاً لم أسمع مثله منذ زمن طويل، ولكنه يبقى كلاماً على كل حال.

هل أقول إنها بداية جيدة ومشجعة؟

نعم هي كذلك، ولكن لا يجوز أبداً أن أغرق في الطمأنينة حتى أقيس كل الأمور بنفسي وأختبرها حتى أعرف صدقها من كذبها.

لقد شبعت من الكلام وشبعت من الوعود وشبعت من الترحال.

يكفي كل هذا.

وطفقت أسأل مبعوث الأمير الأندلسي والذي كان يدعى "منصور" عن طبيعة الحياة والعيش في هذا القطر الذي طبقت شهرته الآفاق، فأخبرني بكلمات مشجعة وقد لا يصدق بعضها.

لم نمكث في سبتة كثيراً، فقد مرّ أسبوع كامل ارتاحت فيه نفوسنا قليلاً من أهوال البحر ومن الخوف من الموت إما قتلاً أو غرقاً أو حتى

خوفاً من أن نقع في أسر القراصنة فنباع كعبيد في أسواق النخاسة من جديد.

وانطلقنا في اليوم العاشر من هبوطنا أرض سبتة باتجاه طنجة. كانت المسافة قريبة. استرحنا قليلاً ثم عبرنا بحر الزقاق عندما كانت الرياح مواتية إلى الجزيرة الخضراء، حيث سأكون لأول مرة في أرض جديدة تدعى أرض الأندلس.

عبرنا المضيق إلى جبل طارق، وحينما وطئت قدماي أرض الأندلس لأول مرة شعرت كأن روحاً جديدة خفيفة مرحة قد امتزجت بروحي المكتوية بالعذاب والترحال. وداعب أنفي هواء لم أشم مثله من قبل. كل شيء هنا كان يتبسم؛ الأرض والوجوه والأشجار والتلال والوديان وقمم الجبال البعيدة المكللة بالثلج.

إنه شعور مغاير أشعر به وأتشرّبه أيضاً رغماً عني فيمتزج بكل جزء من كياني.

وهنا أدركت فقط لماذا كانت هذه الأرض فردوساً حقيقياً غير زائف.

كان منصور مبعوث الأمير الأندلسي قد أرسل إلى مولاه يخبره بقدومي إلى الأندلس ويستأذنه للسفر إلى عاصمة ملكه: قرطبة.

وقد أذن له ولي، وسارت قافلتنا المهيبة إلى قرطبة، وانتابني شعور حقيقي بأن هذه هي القافلة الأخيرة التي أسير في ركابها ولن تكون بعدها أي قافلة ولا ترحال ولا عذاب.

٣٨

كان ترحيباً حاراً لم أتوقعه من أمير البلاد عبد الرحمن بن الحكم!!

ترحيب من شخص لم تقع عيني عليه حتى الآن.

ولكنها كانت بداية رائعة أكثر بكثير مما أتوقع.

ولا أدري أكان هذا الترحاب العظيم بإيحاء من منصور مبعوث الأمير أم إنه صادر شخصياً من أمير الأندلس.

وعلى كلٍ، كان استقبالنا يشيع الراحة في النفس وكأنما كان لي أشبه بمكافأة عن كل تلك الأيام السوداء والأقدار المجحفة التي ما فتئت تسقيني الأسى والمكابدات المرّة يوماً وراء يوم، وماسحاً كل الآلام وكل الخيبات التي صادفتني في السنوات الماضية.

وتذكرت كلام صديقي ابن ماسويه الذي قال "إن هذه الأرض أرض معطاء تعطي من يرغب في عطائها".

إنني ألمس كل هذا الآن في هذه اللحظة الراهنة وتحقق لي مدى صدقيته.

كم كنت ناصحاً لي يا ابن ماسويه.

لشدّ ما أشعر بالامتنان لك في هذه اللحظات الفريدة التي أعيش

كل هنيهة فيها.

كان أمر سفرنا في هذه المرحلة لا يشبه السفر في معناه الحقيقي والمجرد، بل كان أشبه برحلة للتنزه والتأمل في كل هذا الغِنى وكل هذا الجمال والتنوع في سحنات البشر والمدن والقرى والحقول والبساتين والدساكر وحتى لون التراب وكل شيء.

إنها بلاد الأندلس.

كل شيء فيها بدأ يدهشني ويلجم لساني ويصبح عاجزاً عن كل كلام.

بعد أن هبطنا بسلام إلى الجزيرة الخضراء، توجهنا إلى مدينة "طريف" فاستقبلنا واليها بكل كرم وحفاوة، وامتدت هذه الحفاوة إلى والي شذونه الذي بالغ في إكرامنا، ولبثنا في شذونه ثلاثة أيام قبل أن يتجه موكبنا إلى المحطة ما قبل الأخيرة، إلى اشبيلية قبل الوصول إلى قرطبة عاصمة الأندلس وإحدى أشهر مدن الدنيا مع بغداد والقيروان.

كان موكبنا الذي يلفت الأنظار بأبهته وضخامته يسير بحذاء نهر الوادي الكبير الذي امتد على طول الطريق ناشراً الاخضرار والخصب والنماء في ما حوله.

ولم يستمر سيرنا طويلاً حتى لاحت لنا قرطبة.

في أسفلها يلمع نهر الوادي الكبير وفي شمالها تشرئب قمم جبال سييرا مورينا مثل خرافة أو سحر، ومن على بعد ترى تلك القنطرة الكبيرة الأعجوبة التي بناها الرومان ورمّمها المسلمون تحمل الماشي لتنقله إلى الضفة الأخرى من النهر الكبير. ولمحت بيوت قرطبة التي يغلب عليها اللون الأبيض، فكانت تبدو مثل فرح غامر، مثل براءة

شفيفة أو طفولة نقية من الشوائب.

إنها لا تشبه المدن التي زرتها أو مررت بها في طريقي على الإطلاق. رأيت في قرطبة مزيجاً فريداً من عدة مدن انصهرت في مدينة واحدة. فهنا ترى بغداد ودمشق والموصل والإسكندرية والقيروان كلها مجتمعة ومنصهرة في بوتقة واحدة.

حتى ناسها وسكانها فقد كانوا يشكلون مزيجاً غريباً من عرب وبربر وقوط، كل بملامحه التي تميّزه عمّن سواه.

قرطبة القطب الكبير والضخم من الرحى حيث تكون بغداد في الشرق وهي في الغرب.

أي توازن عجيب هذا، كأنهما كفّتا ميزان لا تطغى إحداهما على الأخرى.

قرطبة...

إذن هذه هي محطتي الأخيرة وستكون الأخيرة، سواء أكانت خيراً أم شراً.

إذا شاءت الأقدار ورفضتني هذه المدينة فسأرحل جنوباً إلى بلاد مراكش ومنها إلى الصحراء البعيدة جنوباً لكي أكون هناك وحيداً غائصاً في الرمال مجترّاً خيباتي وآلامي حتى لحظة موتي.

ودخلنا المدينة آخر النهار وقبيل حلول المساء، ووجدت على أبوابها موكباً سلطانياً تشريفياً يترأسه أحد رجال الأمير يدعى "حسان". كانت مهمته أخذي وعائلتي إلى حيث أمر أمير البلاد أن يكون مقرّي الأول قبل أن ألتقيه.

وسرنا في شوارع المدينة التي بدا لي كأنها ترتدي ثوباً من السكينة

والفرح والهدوء في مثل هذا الوقت من اليوم، وانعكس على هذه البيوت الجميلة التي تزدهي باللون الأبيض الناصع وحولها الحدائق النضيرة الفسيحة وتحيط بها أشجار الحور السامقة.

وبعد أن ألقيت برحلي في منزل كبير وعامر وأشبه بقصر، قيل لي إن الأمير عبد الرحمن بن الحكم سوف يلتقي بي بعد ثلاثة أيام، بعد أن أكون قد استرحت تماماً من مصاعب الطريق ومتاعب السفر وأهوال البحر.

استرحت سحابة ثاني يوم من وصولي، ولكنني لم أتحمّل كثيراً المكوث في البيت وانتظار لقاء حاكم البلاد، فطفقت في خلال هذين اليومين أسأل منصور عن أمير البلاد أسئلة كثيرة كان يضحك من بعضها، وقال لي والبسمة تشع على محيّاه:

– إن الأمير عبد الرحمن بن الحكم من خيرة الأمراء، فهو إلى جانب حزمه وقوة شكيمته يعشق الحياة ويقدسها ويقدّر أصحاب المواهب أيّاً كان نوع هذه الموهبة، ثم إنه بصدد أن يغيّر كثيراً من نمط العيش والحياة في كل الولايات التي يحكمها. كان يريد لهذه الأرض التي تدين له بفروض الولاء والطاعة أن تكون منارات للفكر والأدب والعلم وحتى الغناء والشعر.

أصابتني الحيرة والعجب كثيراً من كلامه، فإذا كان ما يقوله صحيحاً فإنني لم أخطئ قط بالمجيء إلى هذه البلاد البعيدة جداً عن موطني الأصلي. إذا كانت الأمور ستسير في هذا الاتجاه فسأجد أرضاً خصبة لأحلامي التي وئدت قبل أن يكتب لها أن تأخذ مكانها الطبيعي، وسوف تكتحل عيناي أخيراً برؤيتها متجسّدة أمامي.

وكان من اكتشافاتي الجديدة المذهلة أن منصوراً هذا كان من رجال الدولة المهمين بالرغم من أنه كان يهودياً!

وبدأت أخرج من بيتي أستكشف مدينتي الجديدة. دخلت الأسواق المكتظة بالناس، وصليت في الجامع الكبير، جامع قرطبة، الذي كان ذا هيئة أخّاذة تأخذ بمجامع القلوب. كان جامع قرطبة حالة فريدة من نوعها في معماره وأسلوب بنائه. كان فريداً بأقواسه المزدوجة ومقرنصاته وعقوده وقناطره الحجرية، وأعمدته وقببه ومآذنه. هنا وجدت المعمار الشرقي المأخوذ من بلاد العراق ومن القيروان ومن دمشق. كومة من آهات ومشاعر ترجمت إلى جامع ليس له مثيل في كل بلاد الدنيا.

أستطيع القول إنني قد فهمت قليلاً مما يجري في هذه المدينة خلال الأيام القليلة الفائتة، ربما لأنني سابقاً كنت أدخل المدن وأنكفئ على نفسي ولا أهتم بما يدور حولي.

كنت مخطئاً. وقد فاتني بسبب هذا الانكفاء وعدم الاهتمام الكثير مما يجدر بي أن أفهمه وأحكم عليه بعقلي لا بقلبي ولا بالحياد الذي كنت أسبح في لجّة أمواجه.

مكثت كذلك سائلاً ومستفسراً وماشياً على قدميّ في أرجاء المدينة حتى جاء اليوم الرابع على وصولي، عندما جاءني منصور وقال لي إنه يجب أن أستعد للذهاب إلى قصر الأمير في هذا المساء.

٣٩

أمر الأمير عبد الرحمن بن الحكم بالآتي:

١- تُصرف لي مئتا دينار ذهباً شهرياً.

٢- لكل واحد من أبنائي يصرف له عشرون ديناراً كل شهر.

٣- ثلاثة آلاف دينار سنوياً لمصروفات الأعياد والمهرجانات.

٤- ثلاثمئة مدّ من الحنطة ومثلها من الشعير غذاءً لعائلتي وللدواب الخاصة بي.

٥- أربعة من الدور، واحد منها في حومة باب الفرج والثاني في حومة عين فرقد والثالث في غدير ثعلبة والرابع قرب باب العطارين.

٦- ثلاثة بساتين في حي روح القدس والثاني في حومة حير الزجالي والثالث في حومة الرقاقين.

٧- أهداني مئة مملوك يسيرون معي أينما توجهت في موكب كبير.

كان كل هذا قد حدث في أول لقاء بيني وبينه.

لقد استمع إليّ وطرب لغنائي، وسار بنا الحديث إلى أحوال الملوك وسير الخلفاء، فوجد لكل سؤال جواب لدي.

يا الله كم أشعر بالامتنان لهذا الرجل!

لم يكن الأمير عبد الرحمن بن الحكم ينادمني من أجل الغناء فقط رغم شغفه به، بل كان رجلاً يحب الأدب ويعشق الشعر ويطرب لكل ما هو جديد وغير مطروق أو مألوف.

وهكذا أصبحت مهمتي سهلة وميسرة.

كانت قرطبة عندما قدمت إليها مجتمعاً يكاد يكون بدائياً في عاداته وأسلوب حياته رغم غناء الأرض وتنوّع الناس واختلاف مشاربهم. لم تكن لهم إلا عاداتهم التي جاؤوا بها من أوطانهم الأم؛ فالعربي ما زال يعيش بأسلوب حياته القديم نفسه في الصحراء، وما زال البربري خشناً وبدائياً وينظر إلى كل ما حوله بارتياب، وما زال القوط أصحاب الأرض المفتوحة من قبل العرب والبربر في حال لا يعلمها إلا الله من الجهل والبدائية.

بدا الجميع كأنهم مجموعة من البشر التائهين والعائشين في ضنك ومشقة، وقد وجدوا أنفسهم فجأة في بستان وارف الثمار والظلالن فأخذ كل فرد منهم ينهل من معين كبير لا ينضب ولكن كل بطريقته وعلى سجيته.

كانوا في مجملهم يريدون بل ويحتاجون إلى نوع ما من التهذيب والنظام بدلاً من الفوضى العارمة هذه التي لا يحدّها حد.

كانت مئة وخمسة عشر عاماً قد مرّت منذ الفتح الأول ولكن لم يكن هناك استقرار مجتمعي، فالحروب والثورات لم تكن تسمح ببناء الإنسان الحامل سيفه دوماً والراكب على جواده أبداً.

ومع تسلّم هذا الأمير عبد الرحمن بن الحكم فقد بدأت بوادر الاستقرار تلوح في الأفق وبدأ الناس يفكرون في كيفية العيش بسلام

بعضهم مع بعض، فبقدر ما يكون هناك قبول للآخر وتعايش وهدوء حينها يبدأ الإنسان بالتفكير في النمط المريح لحياته.

– ماذا لديك لقرطبة؟

وكان جوابي للأمير في السؤال المعلّق بيني وبينه:

– أفضّل أيها الأمير أن يكون جوابي على سؤالكم بالفعل لا بالكلام.

ولقد بدأت بالعمل.

بدأت من العادات اليومية التي يشترك فيها كل البشر.

كانت متع الدنيا تتكوّن من المأكل والملبس والمشرب.

ومن هنا كانت البداية.

كان الإنسان القرطبي بكل أطيافه، العربي والبربري والقوطي، محبّاً للحياة بطبعه وقد ساعدني هذا كثيراً.

كانت قرطبة بل والأندلس كلها تحتاج إلى أسلوب جديد للحياة. أن تنتقل من مجتمع البداوة إلى مجتمع متمدن، من مجتمع فوضوي إلى مجتمع منظّم.

كانت هناك حاجة ملحة إلى الذوق واللياقة وطريقة التعامل المثلى لكل ما يمس الحياة العامة.

كانت العادات اليومية المألوفة والبسيطة هي المدخل الذي استطعت النفوذ منه بهدف الوصول إلى ما أريده.

كانوا في بادئ الأمر يحتاجون إلى قدوة.

بدأت بنفسي أولاً.

في الملبس مثلاً، وجدت أن الأندلسيين من عرب وبربر وقوط لا

يفرقون بين ملابس الصيف وملابس الشتاء.

ففي الصيف كان الجسد يحتاج إلى الملابس التي تكون منسوجة من القطن وفي الشتاء يحتاج الجسد إلى ثياب الصوف، فلا بأس أن يلبس الناس الملابس البيضاء الخفيفة في الأيام العادية وأن تكون هناك الملبوسات الملونة الزاهية في الأعياد والمواسم. وكانت بدايتي في هذا الأمر في يوم مشهود يحتفلون به ويسميه الأندلسيون يوم "العنصرة" حيث يبدأ الصيف اللاهب فيحتاج الجسد إلى الملابس الخفيفة ثم يتدرج الأمر بحسب شدة الحر والبرد ليكون لكل فصل اللباس الملائم له.

أما في الشهور التي لا يكون هناك برد فيها أو حَر فيفضّل أن تُلبس فيها الملابس التي تكون خفيفة ولا بطائن ثقيلة لها.

كنت أحضر إلى ديوان الأمير عبد الرحمن في الصيف وفي الشتاء، وكنت أحرص على أن أرتدي من الثياب ما يتناسب مع كل فصل من فصول السنة، فقلدني في ذلك الأمير بعد أسئلة مستفيضة، ثم تبعه رجال البلاط ثم الوجهاء والأعيان والتجار ثم عامة الشعب.

وفي الهيئة العامة وجدت أن معظم الأندلسيين لا يهتمون بتصفيف شعورهم وحلاقتها، حيث إن غالبيتهم يقومون بتضفير شعورهم إلى ضفيرتين، والبعض منهم كانت شعورهم مفروقة من الوسط وينسدل الشعر إلى الصدغين في منظر لا يليق بالرجال، وكانت تلك الخطوة مهمة، وأوكلت هذه المهمة إلى ابنتي حمدونة وعُليّة وإلى جواري غزلان وهنيدة ومتعة وطروب، حيث علمتهم كيف يقصّون شعورهم قصّاً يتناسب مع كل وجه وهيئة، وجعلت من جواريّ وغلماني

يقصّون شعورهم من الأمام بحيث ينسدل بخفة فوق الجبهة وتسويتها مع الحاجبين، ما يعطي الوجه استدارته ويبرز جماله وتفاصيله.

وكانت ثيابهم لا تخلو من رائحة العرق القوية، فكان الحل في نبتة "الاسفراج" التي تضاف إلى الماء الذي تغسل به الملابس فتعطيها رائحة زكية.

وكان لا بد من وجود الحمّام، فاستأذنت الأمير لكي يبني حمّاماً لأهل مدينته بعد أن أخبرته بأهميته في حياة البشر.

وكان الحمّام فتحاً كبيراً في حياة القرطبيين المتعطشين دوماً إلى كل جديد. كنت أرى الوجوه الطافحة بالبشر والسرور وهم خارجون منه، فكنت أسعد لسعادتهم وأفرح لفرحهم.

وتلاحقت خطوات التغيير.

وجدت أن الأندلسيين بكل فئاتهم وأطيافهم يقدّمون طعامهم دفعة واحدَة، وكان غالب مأكولاتهم من العصائد والثرائد التي تؤكل بالأصابع كيفما اتفق. كانوا يفتقدون آداب المائدة وآداب الأكل، فبدأت بمعالجة هذه المشكلة بإقامة المآدب على شرف الأمراء والتجار والوجهاء في بيتي. فقدمت لهم الحساء أولاً ثم الخضر ثم تأتي الوجبة الأساسية المكوّنة من اللحوم أو الأسماك أو الطيور والدواجن وأعقبتها بالفاكهة والحلوى.

وكانت ثورة كبيرة في طريقة تقديم الأكل، استخدمها جلّ سكّان المدينة، فانتشرت في ما بعد في كل بلاد الأندلس.

وما هي إلا أيام وشهور حتى أطلق عليّ الأندلسيون لقب "المعلم".

٤٠

يقال إن لأوتار العود أسماء أربعة على عدد أوتاره. هذه الأسماء لها مقابل في الطبائع الأربعة، التي ترتبط بمجملها بالطبائع الكونية القديمة كالألوان والأمزجة والرياح والفصول والروائح. إنني لست على يقين من مدى صحتها ولكنني أشعر بها على الأقل عندما أداعب أوتار عودي الذي أضفت إليه وتراً خامساً منذ أيامي في بغداد، فزاد ذلك من أنين النغم ولوعة اللحن، فأصبح يمس القلب والوجدان برهافة. ولقد زاد ذلك في إعطاء مساحة صوتية إضافية لكي أتمكّن من أداء اللحن والانتقال إلى سلالم المقامات المعقدة التي تحتاج إلى أداء أكثر مهارة ودربة.

إنني أحفظ الكثير من الألحان، ولكني لا أعرف كيف أحفظ هذه الألحان من النسيان، واهتديت إلى أن ذلك لن يتم إلا بالعزف والغناء على شكل نوبات ألقيها وأدربها لتلاميذي عسى أن يكون هذا سبيلاً لحفظها من الضياع.

كانت أوتار العود الأربعة ابتداءً من الوتر السفلي إلى الوتر العلوي تسمى كالآتي:

الوتر الأول يسمى "الزير" وقد صبغته باللون الأصفر وهذا يكون بمثابة الصفراء في الجسد، والوتر الثاني في الترتيب يسمى "المثنى" ولونه أحمر وهو في الغِلظ والسُمك ضعف سُمك الوتر الزير وهو بمكانة الدم في الجسد، ويأتي بعد ذلك الوتر "المثلث" وهو في غلاظته وسمكه ضعف الوتر الزير والمثنى ولونه أبيض وهو بمنزلة البلغم من الجسد، ويدعى الوتر الرابع باسم "البم" ولونه أسود وهو ضعف الوتر المثلث في الغلاظة والسُمك وهو أعلى أوتار العود، وهو بمكانة السوداء في الجسد. وهذه الأوتار الأربعة مقابلة لطبائع البشر.

ومع ذلك جاءت إضافتي للوتر الخامس، فقد رأيت أن يكون في مكان وسط بين الوترين العلويين والوترين السفليين وسمّيته الوتر "الوسط الدموي"، وكان بمثابة النَفس في الجسد.

إن هذا الوتر لم أضعه اعتباطاً، بل جاء بعد تجربة وتمحيص شديدين.

وقد كنت سابقاً أضرب على أوتار عودي بقطعة من خشب تبلل بالماء والزيت لكي تلين عريكتها قليلاً أو باستخدام ريشة طائر، ولكنني بعد ذلك استعضت عنها بريشة تنزع من قوادم النسر، ولهذه الريشة خصائص فريدة، فهي لينة وتنحني بسهولة على الأوتار وخفيفة في الصعود والهبوط فوق الأوتار، ولا تُحدث إلا الرنّة المطلوبة منها بلا زيادة أو نقصان، وتحافظ على الأوتار من التلف والخدوش.

وقد استبدلت الوترين الغليظين في العود، وهما وتر المثلث والبم بمصران شبل الأسد، وذلك لكي أضمن عدم تلف الأوتار ولكي يساعدني ذلك في الحصول على أنغام شجية تتناسب مع بقيّة الأوتار.

ثم يأتي الغناء.

كان الحداء هو غناء أهل الأندلس. وهو غناء بسيط يعتمد على الأصوات البشرية فقط من دون أن تصاحبه أي أداة كالعود أو النقر على الدف. كان لا بد من أن يكون هناك شيء جديد يليق بأهل الأندلس، فهم في الغالب يعشقون التجديد ويكرهون الثبات على حال واحدة. لقد أصبح الحداء بمصاحبة تلك الأدوات هو الأسلوب الشعبي للغناء في الأندلس. وقليلاً قليلاً أدخلت مكاناً صغيراً يتخذ شكلاً دائرياً يجلس فيه المغنون والعازفون وأطلقت عليه اسم: الستارة.

وكانت طريقتي في الغناء تتكوّن من الآتي:

يفتتح الغناء أولاً بالنشيد ثم البدء بالنقر، ثم يأتي في إثره بالبسيط، حيث يمتزج الإيقاع الغنائي بالإيقاع الشعري، ويختم الغناء بأن تأتي في الختام الأهازيج الخفيفة السريعة.

ومن الأشياء التي قمت بإدخالها في أسلوب الغناء أن تكون هناك فرقة تجمع بين العازفين والمنشدين للحصول على التناغم المطلوب في الغناء.

ومن المهم أن يكون هناك نظام تام متكامل لفعل كل هذا. كنت في أعين تلاميذي القدوة. فكان من المهم أن أكون قدوة يُحتذى بها في النظام والجدّية في التعلّم والتدريب، فكنت أخصّص سحابة النهار للدرس والتدريس وبعد الظهر للقراءة والاطلاع على علوم مختلفة حتى لا تحدث حالة من الجمود فيتوقف دفق حب المعرفة في نفسي.

إن أرض الأندلس تساعد المرء على العمل وإتقانه على أفضل وجه، وقد أشغلت جلّ وقتي وكل همي في أن أسعى إلى ما أريد أن أحققه من أحلام. وجدت التربة الصالحة للبذر ومن ثم سيكون الزرع والإيناع.

كانت "دار المدنيات" التي تُعنى بتعليم المغنين والمطربين وتخريجهم من أفضل الأعمال التي انشأها أمير البلاد عبد الرحمن بن الحكم، وقد جعلني قيّماً على هذه الدار. ولقد جاء إلى هذه الدار فتيان وفتيات من مختلف أصقاع الدنيا، جاؤوا من مختلف أنحاء الأندلس ومن بلاد الغال ومن الباشكنز ومن النورمان ومن بلاد المغرب ومن بلاد المشرق.

كان من المهم أن يكون لدى المتدرب الاستعداد الفطري ليكون مغنياً.

ولا مندوحة من القول إنني قد استخدمت طريقة أستاذي القديم إسحاق الموصلي في تخريج هؤلاء المتعلمين الذي عشقوا الطرب والغناء وأحبوه بكل شغاف قلوبهم، ولكن بأسلوب ألطف قليلاً من أسلوبه الصعب والقاسي.

٤١

في أرض الأندلس وفي بلاط الأمير تحديداً لم أخلُ من الحسّاد.

إنها سُنّة الله الكونية في خلقه.

تمام بن علقمة وعبدالملك بن حبيب السلمي و... و... غيرهم كثير، منهم من يجهر بالعداوة ومنهم من يخفيها في صدره.

لن أتحدث عنهم جميعاً، بل سأختار أكثرهم عداءً وحسداً لي.

كان أكبر حاسد لي في بلاط الأمير شاعر جليل ذو شعر عذب، ولا أعرف كيف يمكن أن تجتمع العذوبة واللطافة والحسد والبغضاء في قلب شاعر!

كان هذا الرجل الشاعر يدعى: يحيى الغزال.

وإلى جانب كونه شاعراً مجيداً كان سفيراً لأمير البلاد أيضاً.

كان اسمه الحقيقي يحيى بن الحكم الجياني، ولقّب بالغزال لجمال شكله وهيئته، ولكن ذلك لم يكن مانعاً لكي يكون لسانه قذراً في هجائي.

وكان يفتخر بأرومته وأصوله العربية في مجتمع قد بدأ بالكاد ينسى مثل هذه الأمور التي تزيد من اتساع الهوات بين الناس في هذه الأرض.

أعرف أن دوافعه وأسبابه هي الأسباب والدوافع نفسها التي أدت إلى أن يطردني إسحاق الموصلي من بغداد.

ليت هذا الشاعر يعرف بأن زرياباً الذي يتحداه ويقف في وجهه الآن لم يعد هو زرياب القديم.

لقد نبتت لي مخالب طويلة باستطاعتها أن تريق الدماء وتسبّب جروحاً غائرة. هذه المخالب أنبتها من هم على شاكلته. ولي أيضاً لسان ذرب وقد يكون وقحاً أحياناً، لو قدّر لي استخدامه لجعلته يتوارى خجلاً في بيته.

ولقد هجاني بقصيدة مقذعة وزاد هياجه وحسده عندما منحني الأمير عبد الرحمن بن الحكم دار "نصر الخصي".

نصر الخصي قاهر جيوش النورمان التي هاجمت بلاد الأندلس، نصر الداهية والقائد المحنك الذي قتله الأمير عبد الرحمن بن الحكم لأنه حاول العبث بتراتبية ولاية العهد، بل وحاول قتل الأمير ليحقق مآربه.

وهذه الدار لم تكن مجرد دار بل كانت قصراً منيفاً تحيط به البساتين الوارفة.

وكان من عادة هذا الشاعر يحيى الغزال أن يخلط الجد بالهزل ويسخر من كل شيء أمامه ولا يحفل بمقام أو برجل.

و لم يسلم منه حتى الفقهاء ورجال الدين. فكان يسلق هذا بلسانه الحاد ويهجو ذاك بكلماته القوية التي تصل بنصلها إلى العظام.

وعندما قال عنهم إنهم حفنة من المنافقين بالرغم من ظهورهم بمظهر التقشف والزهد والعزوف عن الدنيا رغم غناهم الفاحش وأموالهم

المكنوزة في أماكن سرية وبعيدة عن العيون، ثاروا عليه وتعقّبوا زلاّته، ولكنه دائماً ما كان يتملّص منهم ومن مكائدهم بطريقة فذة.

ولكن ما له وما لي؟ ماذا يريد مني؟

ولقد شكوته إلى الأمير فطرده من الأندلس كلها وذهب إلى بغداد، ولكنه لم يطبْ له المقام هناك فعاد مرة أخرى إلى قرطبة.

و لم يجد الأمير عبد الرحمن بن الحكم بدّاً من إخراجه من البلاد ولكن بطريقة ذكية تحفظ له ماء وجهه وتشفي قليلاً من صدور أعدائه الذين أخطأ كثيراً في اختيار نوعهم!

وقد عَهد إليه الأمير بسفارة إلى ملك بيزنطة "تيوفليوس"، فذهب إلى هناك وقد قال لي هشام بن عبد العزيز زوج ابنتي حمدونة والوزير في بلاط الأمير إن الملك البيزنطي قد أعجب به كثيراً لظرفه وأدبه وأعجبت به أيضاً سيدات القصر، فكان ينشد فيهن القصائد، وعندما قام المترجمون بترجمة هذه القصائد زدن به إعجاباً وولهاً.

وغاب الشاعر الغزال في سفارته ثلاث سنوات كُفيت فيها مؤونة شره والاضطرار إلى الرد عليه وعلى مشاكساته لي.

وعندما عاد وضعت يدي على قلبي، وبدأت أستعدّ لمعركتي القادمة معه.

وكما توقعت، لم يكن يحيى الغزال ليتركني.

وقد قال لي يوماً:

– إن من هم على شاكلتك غير جديرين بالوفاء، فقد غدرت بأستاذك إسحاق الموصلي وتنكّرت لفضله عليك، وها أنت ما زلت تحنّ إلى بغداد. أليس كذلك؟

لم أجبه.

كان ذاك شَرَكاً يريد أن يوقعني فيه، ولكنني كنت حريصاً على ألا أقع في مثل هذه الألاعيب المثيرة للسخط. كنت منصرفاً إلى تحقيق حلمي الذي كرّست له جلّ وقتي وجهدي.

كانت عداوته لي مكشوفة، وهذا ما أراحني منه، فالعدوّ الظاهر خير من العدو المتسربل بالظلام والذي يسدد لك طعناته في جنح الظلام.

كان كل شيء يسير في طريق المحتوم، حتى فوجئت به يوماً ما يدخل بنحو فج إلى دار المدنيات حيث كنت مع تلاميذي وتلميذاتي، فتوقفنا فجأة عن التدريب ونحن نسدد إليه نظرات مستنكرة.

بدأ هذا الرجل بالسخرية مني ومن تلاميذي، مسفّهاً ما أقوم به، وأخذ يقول لي ولتلاميذي بصوت جهوري وبنبرة متعالية:

– ماذا دهاك يا رجل؟ ما هذا الذي تفعله أنت وهؤلاء النفر؟ ألا تستحي من ذلك؟ أين فقهاء وعقلاء الأندلس منك وممّا تفعله في هذا المكان القبيح؟

لا أعرف ماذا حدث بعد ذلك. وجدت نفسي ممسكاً بتلابيبه وأجرّه جرّاً إلى خارج المكان وقد أخذ الغضب مني مبلغه، و لم يعد إليّ عقلي وأستعد توازني إلا وأنا في بلاط الأمير.

لقد قلت كلاماً كثيراً وقال هو كلاماً أكثر.

وابتعد يحيى الغزال عن طريقي مرة أخرى عندما أرسله الأمير عبد الرحمن بن الحكم إلى ملك النورمان في سفارة جديدة، وبذلك حصلت على راحة منه ومن حقده وحسده لي من دون أي سبب ظاهر.

ولست أدري ما إذا كان إرساله في سفارة إلى بلاد النورمان بسبب هجماتهم على مدن الأندلس وقراها ونهبهم لتلك المدن والقرى في لمح البصر. فقد قال لي أحد تلاميذي في دار المدنيات إن قومه قوم متوحشون يقتاتون بالنهب والسلب ولهم سفن سريعة ومخيفة الشكل وصغيرة أيضاً ومليئة بالمقاتلين الأشداء، وهي تجوب البحار لغرض السلب والنهب، حتى أهل الأندلس لم يسلموا من أذاهم وشرهم. واختتم كلامه بقوله إن بلاده بعيدة جداً من هنا.

لا مناص من القول إني قد فرحت بهذه السفارة وتمنيت لعدوي اللدود التوفيق فيها!

و لم أتخلّص من عداوة هذا الرجل إلا بعد أن وقع في الحب!

وأي حب وقع فيه!

فلقد هام حباً بالملكة "تود" زوجة ملك النورمان الذي يدعى "هوريك"، وقال فيها قصائد مليئة بالشوق والشجن أنسته المصاعب التي صادفها في طريقه إلى بلاد النورمان البعيدة. وقد مكث هناك سفيراً لمدة عامين قبل أن يعود من سفارته.

كانت نهاية مثالية لعداوة خفت منها وشغلتني كثيراً ولكنها انتهت على كل حال. ولقد أسرّ إلي صديقي عباس بن فرناس بأن الشاعر الستيني الغزال ذائب في الحب والعشق، وأن حبّ الشيوخ وعشقهم يماثل تماماً حبّ الصبيان في بواكير أعمارهم حينما يملك عليهم قلوبهم ويصيبهم بالحيرة والألم أيضاً.

٤٢

قرطبة في عام ٢٣٧ هـ

أنا زرياب وأحمد الله أن سادتي الأوائل في بغداد قد سمّوني زرياباً!!

في ذلك الزمن البعيد كدت أبكي من الغيظ عندما أطلقوا عليّ هذا الاسم الغريب، أما اليوم فإنني أشكر لهم هذه التسمية وأشكرهم على طردي من بغداد. فلولا ذلك لم أكن في يوم ما زرياباً الذي أكونه الآن، ولم أعرف قرطبة التي غدت موطني الحقيقي الذي أستحقه.

هل كان التاريخ سيذكر اسمي الأول علي بن نافع أو كنيتي أبا الحسن؟

فكم من شخص يحمل هذا الاسم وهذه الكنية الشائعة، وكان ذلك حقيق بأن يضيع في أضابير التاريخ وتوالي الأيام والأعوام.

إنني الآن في الرابعة والسبعين من عمري وما زلت مستمتعاً بكل لحظة تُسجّل في صفحات الزمن وكل شاردة وواردة تعبر من أمامي كل حين.

أربعة وثلاثون عاماً مضت من عمري وأنا على تراب هذه الأرض المعطاء. لقد أعطتني وأجزلت لي العطاء.

وأنا ماذا قدمت لها؟

لقد جئت إلى قرطبة منذ أكثر من ثلاثة عقود من الزمن والتقيت بأميرها الفذ عبد الرحمن بن الحكم.

لقد أعطاني وأجزل لي العطاء، ما حدا بهذا لأن يكون حديث أهل قرطبة زمناً طويلاً.

إنني الآن أذكر لقائي الأول به حينما قابلته في قصره. أحسست كأني أعرفه منذ زمن طويل. كان رجلاً دمث الخلق، طيب السريرة، واسع الحيلة، وكان يتميز بخصلة عجيبة ومهمة أهملها كل الأمراء الذين أراد الزمن أن أكون بينهم في يوم ما. هذه الخصلة هي: التغاضي.

التغاضي عن الهفوات والزلات غير المقصودة. إعطاء الفرصة تلو الفرصة للخروج من المآزق أو حتى للتعمق فيها حتى ينقطع خط الرجعة تماماً. كان رجلاً بعيد النظر وله رؤية لا تخطئ في غالب الأحيان. وأذكر سؤاله لي في لقائي الأول معه منذ خمسة وثلاثين عاماً:

- ماذا لديك لقرطبة يا أبا الحسن؟

وقد فكّرت مليّاً في هذا السؤال العجيب والفريد الذي لم يسألني إياه أحد غيره.

ماذا لديّ لقرطبة؟

لقد قدمت لهذه المدينة ما أحب، وإذا أعطى الإنسان ما يحب فقد أجزل العطاء.

إنني أكتب هذه المخطوطة منذ أن تحرّكت أول قافلة لي من بغداد في طريق منفاي. كنت أختلس أويقات لكي أكتب سيرة الطائر

الأسود الذي يعنيه اسمي "زرياب". لقد كتبتها بعيداً عن العيون، وفيها كنت أبثّها حزني وشكواي، فكانت نِعم المعين لي في سنواتي الماضية القاحلة.

لقد كتبت مخاوفي وسردت آلامي فأطلت في وصفها، وعندما حاولت أن أكتب جواباً عن سؤال أميرها وجدت نفسي عاجزاً وكلماتي تتقاصر وتتضاءل حتى تصبح هباءً وتضيع في الفضاء.

أنا زرياب خدين السلاطين ونديمهم ومغنّيهم أعجز عن الكشف عن مكنونات نفسي في لحظات صفائها وهنائها.

ماذا خسرت وماذا ربحت، الله تعالى أدرى بذلك أكثر مني.

لقد منحني الله خمسة وسبعين عاماً حتى الآن، ولا أدري أحالفني الحظ في إنفاقها في الوجه الملائم أو أنها قد ذهبت هباء منثوراً؟

لقد كسرت اليوم ريشتي وحطمت دواة الحبر عندما أبتْ الكلمات أن تتحوّل إلى حروف، وها أنذا أقف عاجزاً عن كل فعل أو كلام.

ورقة في آخر المخطوطة كتبها الشاعر القرطبي أسلم بن عبد العزيز القاضي، أحد تلاميذ زرياب المقرّبين.

قرطبة في عام ٢٣٨ هـ

كنا حوله. حفنة من تلاميذه ومريديه وعشاقه. نحيط به إحاطة السوار بالمعصم. كان مستلقياً على سريره. يبدو مهزوماً ووحيداً. يشخص ببصره إلى سقف الحجرة تارة ويتفرّس ببطء في وجوهنا تارة أخرى. تصدر منه أنّات متصلة خافتة يجاهد في إخفائها. لم يبقَ منه سوى جلد على عظم. قطعة متشققة من الجلد الأسود تكسو عظاماً ناتئة. عينان منطفئتان بالكاد ترمشان. أصابع طويلة وجافة. هل يعقل أن يكون هذا زرياب؟

زرياب الذي ملأ ليس قرطبة وحدها بل الأندلس ضجيجاً وحضارة. زرياب الذي يعرف كيف يزرع في النفوس حب الحياة وعشقها. زرياب الذي هذّب الكثير من العادات وأضاف الكثير من التقاليد في بلاط الأمير أولاً ثم انتقل هذا التغيير وهذه الثورة في تحسين أساليب الحياة والرفاهية إلى بقيّة الأندلسيين. هل يعقل أن هذا زرياب الذي جعل للموسيقى والطرب والغناء مدرسة جعلت له شأناً شغل به عقول الناس وأفئدتهم.

نور ساطع ومنهمر من الإنجازات والابتكارات التي قلبت قرطبة رأساً على عقب. كانت لذائذ الحياة وتنظيمها وامتصاص عسلها قليلاً قليلاً شغله الشاغل بلا إفراط أو تفريط. كل شيء كان يسير باعتدال. ماذا يمكنني أن أتحدث عن منجزاته الكثيرة؟ هل أتكلم عن ذاك الحمام الذي أنشأه في قرطبة ليكون أول حمام عمومي في طول بلاد الأندلس وعرضها؟ هل أتحدث عن الشعور والضفائر الشعثاء التي هذّبها تدهيناً وتعطيراً وتمشيطاً؟ هل أتحدث عن الأفواه التي طيّبها بالمشروبات المنقوعة بالزهور والمحلاة بالسكر والعسل؟ هل أتحدث عن الطيب الذي يسكب على الأبدان فتشيع البهجة في النفوس. المأكولات التي استحدثها. الأصناف من المشروبات الساخنة والباردة التي تقدم قبل وبعد الوجبة الرئيسة. الملبوسات التي صنّفها لأول مرة في أرض الأندلس إلى شتوية وصيفية؟

كانت أساليب الحياة التي ابتكرها جعلت منه شيئاً مهماً في دولة بدأت للتو تستقر وتريد أن تنافس وبقوة خلافة بني العباس على الضفة الأخرى من العالم. أشياء صغيرة ولكنها مهمة وتستحق التفكير فيها. الانتقال من جلباب البداوة الضيق إلى عباءة التحضّرالفضفاضة. إعادة خلق تفكير جديد يتماهى مع كل ما حوله في رهافة مفرطة أمر ليس باليسير.

أي نجاحات حققها سيدي بعد ذلك؟ الكثير منها جاء تراكمياً. أدرك خلالها أن المعرفة قوة واسعة الأفق تفتح آفاقاً أوسع وأرحب. لم ينقصه شيء من ذاك. كان وما زال رجلاً ذكياً لمّاحاً. والأهم أنه يشعر بالآخرين ويتحسّس متاعبهم ويتغاضى عن مثالبهم وهفواتهم.

نعم هذا هو.

هذا السواد الذي ينسكب على فراش أبيض اللون ويقلّب بصره في وجوهنا وفي فضاء الحجرة الواسعة قد أتعبه السقم وأنهكه المرض. وفيه بقيّة من مجد تليد يجاهد ويقاوم النسيان والعدم.

زرياب الذي أشعل جذوة الحياة وأعاد اكتشافها من جديد في أرض الأندلس أولاً وفي نفوس أهلها ثانياً. لا شيء بقي منه سوى جسد هزيل منهك بالمرض والعلل التي تراكمت سنين عديدة. خمسة وسبعون عاماً على وجه التحديد كوّنت عللاً جسدية وداخلية كان يخفيها عن العيون بقدر المستطاع. ما مرّ به هذا الرجل يفوق طاقة البشر على الاحتمال. خيبات أمل، قهر ولوعة، فراق، دسائس ومكر تزول منه الجبال. ما زال سواده يشع رغم سنوات العلة والمرض. الشيء الوحيد الذي لم يبلَ فيه هو أسنانه البيضاء المنظومة كعقد من اللؤلؤ وذاكرته التي تقاوم ضراوة النسيان.

في الخارج بدت العتمة تطارد آخر فلول النهار بدأب وصبر. في الحجرة الواسعة المشبعة بروائح المساء القادمة، كان بعضنا واقفاً والبعض جالساً في حجرة مكسوة بالفسيفساء ولا تخلو من لمسة من ذوق رفيع؛ ذوق فنان ذي إحساس مرهف وعاشق متبتّل في محراب الحياة.

في هذا الشتاء بالذات بدا لنا كأنه راحل إلى دار البقاء. تبدو المسألة مسألة وقت لا أكثر. بالأمس قال لي بصوت واهن: إنه يشعر بالموت أقرب إليه أكثر من ذي قبل وإنه يتشممه ويكاد يلمسه بيديه ويشعر به من حوله. ورغم ذلك، ما زلت أعتقد اعتقاداً راسخاً أن هذا الرجل

لا يزال فوق كل هذه المنغصات؛ منغصات الحياة المعتادة من مرض وبلاء وامتحان وشقاء. لا أدري من أين أتى إليّ هذا اليقين. كنت أراه ما زال يسوس تراكمات الزمن السيئة بمهارة وحذق يحسد عليها. يتغاضى عن الهفوات والصغائر ويتطلّع إلى كل ما هو إنساني ويتشح بالنبل والطيبة والسمو. تاريخه يقول لي ذلك. أفعاله التي حدثت تحت سمعي وبصري تؤكد ذلك.

هناك أصوات مختلطة تأتي من جنبات البيت ومن الحديقة الواسعة في الخارج، ومن طرقات ودروب قرطبة وحوماتها التي بدأت باستقبال المساءات الشتوية الباردة والطويلة، كعادتها، بفرح غامر. مع مرور الوقت وإيغال المساء، كانت تلك الأصوات قد بدأت تختفي قليلاً. تناهى إلى مسامعنا أصوات أبواب الدور تُغلق على أصحابها والنسوة ينادين على صغارهن باللجوء إلى دفء البيوت بعد استحكام الظلام والعتمة والبرد القارس. ثم قليلاً قليلاً قلّ تعارك الصبية والصغار واختفى ضجيجهم ولغطهم.

ومع شمول الصمت في الخارج، إلا أن البيت المثخن بالنشيج وبكاء النساء الناعم القادم من الحجرات القريبة جعلنا نشعر بالحيرة والارتباك. بناته وزوجته وجواريه وخدمه وحشمه بدأوا بالبكاء وكأنهم شعروا بدنوّ أجله.

كان ممدّداً ومستلقياً على ظهره. يبدو سابحاً في ملكوت يخصّه وحده. منذ لحظات غادر الطبيب الخاص بأمير قرطبة نفسه وهو أيضاً صديق حميم لسيدي زرياب. جاء به الوزير هشام بن عبد العزيز زوج ابنته الكبرى حمدونة. جسّ الطبيب جسده وفحص أذنيه. قلَبه على

بطنه ونقر بسبابته والوسطى على ضلوعه البارزة. فتح فمه ونظر إلى سقف حلقه. هزّ رأسه ثم ابتسم وقال له:

- ستعيش أكثر مما سيعيش أولادك وأحفادك.

لم يبتسم زرياب كعادته عندما يتغنّى أحد بشبابه بسبب عشقه للحياة. كان زاهداً في كل شيء. بدا لي كأنه لم يعد يتطفّل على تلك الجزئيات الصغيرة للحياة كما كان يفعل سابقاً. لم يعد يمتص - كما هو النحل - في دأبه في امتصاص الرحيق من أعطاف الزهر. لم يعد يناجي بشعره العذب وألحانه ومداعبة أنامله لأوتار عوده الأثير تحت شجرة النارنج التي تتوسط الحديقة الواسعة لمنزله الكبير.

كنت أدرك تمام الإدراك أن الوعود تفضل وعوداً، والحزن يلبث حزناً حتى لو ارتدى ثوب الصبر.

كانت رحلته الأخيرة على وشك البداية.

كان ينتظر، وكنا نحن بدورنا ننتظر...

في مساء الأسبوع الفائت، كنت في الطريق إلى منزله، وفي أثناء سيري كانت هناك سحب داكنة متشحة بالسواد تسافر في السماء ببطء. لمحت نحو الغرب طيوراً بيضاء اللون وغريبة الأشكال تحوم في الأفق البعيد. رائحة الأرض الدبقة بمطر المساء الفائت تتسلل إلى أنفي. كنت أخوض في الوحل بقدمي لاهياً وساهياً عن كل ما يدور حولي. أفكر فيه وفي مرضه الذي طالت مدته قليلاً. كنت أدعو الله ألا تريني فيه طوارق الدهر شيئاً مؤلماً. فهذا الشخص هو سندي ومعيني وكلّ ما لدي في هذا العالم الضاري الممتلئ بالقسوة. كنت مصرّاً على استبقائه إلى جانبي أطول وقت ممكن. قبل ثلاث ليال شاركته تناول وجبة العشاء. بدا لي للحظة أن غمّة المرض آخذة في الزوال. كان نشطاً ويبتسم بعذوبة. داعبنا فرداً فرداً. ردّد على مسامعنا طرائف ولطائف أضحكتنا وبثّت فينا النشوة وآنستنا وأنستنا الأيام السوداء التي كان فيها متوسّداً الفراش وغير قادر على الحركة. لم يكتفِ بذلك، بل تناول عوده وعزف لنا مقطوعات تضج من الحزن واللوعة. كانت الأوتار تبكي وتئن تحت أصابعه، وفي الهزيع الأخير من الليل – وقته الأثير – كنت أشاركه تناول شراب البرتقال المخلوط بالعسل. نظر إليّ وتفحّصني من أسفل إلى أعلى وكأنه يراني للمرة الأولى. ابتسم. طلب مني أن نمشي إلى الحديقة التي زرعها شجرة شجرة وتعهدها بالرعاية والحنوّ أيضاً. ثم تحت عريشة عنب جلسنا على مقاعد من خشب

مصقول حول فسقية مثمنة الأضلاع ومكسوة بالزليج ينساب من نافورتها الماء الزلال برخاوة. كان صوت خرير الماء القادم من الفسقية التي تتوسط حديقته الغناء الوارفة بشجر الحور والنارنج يريحه ويجعله في حال أفضل. نظر إليها طويلاً. كان ساهماً. تبدو عيناه وكأنهما تنظران إلى أشياء يراها وحده. كنت في مثل هذه الحالات أتركه لشأنه وأكتفي بمراقبته. أراقب كل شيء يصدر منه. حركاته. سكناته.. إيماءاته. اهتزاز رأسه عندما يشغله الفكر. أرقب تضييق ما بين عينيه وألاحظ توتر أصابعه. ثم لا يلبث أن يبدأ جسده بالتململ. تلمع عيناه ببريق يشتط كالبرق في سماء مكفهرة. ثم تذكرت أنه منذ أكثر من شهر كان يكثر من استدعائي. يطلب مني الجلوس معه في لحظات قيلولته تحديداً أو عندما يقترب الليل من ثلثه الأوسط، الوقت المفضّل لزرياب لمنادمة من يختاره من أخلائه وجلسائه أو حتى لمداعبة عوده القديم والأثير. وفي تلك الليلة سلمني مخطوطته وقال لي إنها قد أصبحت في عهدتي، وإنني حرّ في التصرف فيها، ثم مال عليّ هامساً قائلاً بصوت واهن:

– سأموت قريباً يا أسلم، إنني أشعر بالموت قريباً مني.

ثم شملنا الصمت.

ورقة أخيرة

مات علي بن نافع وكنيته أبو الحسن والشهير بزرياب في قرطبة في ربيع الثاني من عام ٢٣٨ هـ.